المشرق

السنة الثانية والخمسون

ايار – حزيران ١٩٥٨

اكتشافات برية يهوذا

بقلم الاب بولس موترد اليسوعي

لم يحن بعد الأوان لكتابة الصفحات الجازمة بخصوص الآثار المكتشفة في برّية يهوذا في ضواحي البحر الميت ولا يمكن التأكيد بان المستقبل لا يستبقي لنا مفاجأة بحبأ آخر جديد. ثم وان فرضنا ان هذا لن يكون فان عدة آثار لم تُنشر بعد وفحص الآخر هو بعيد من ان ينتهي.

مع ذلك اننا نرى مناسباً بعد ان مرّت عشر سنوات ان نعطي تلخيصاً بياناً عن الحاصل المكتَسب وعن الآمال المحتملة وتساعدنا على ذلك نشرات حديثة جدًا عديدة منها بنوع اخصّ كتاب صغير ظهر في ربيع سنة ١٩٥٧ في مطبوعات «الترف» تأليف الاب ميليك وهو واحد من اهمّ العاملين في «جمعية اورشليم». عنوان الكتاب «عشر سنين اكتشافات في برّية يهوذا».

مجموع الآثار في الحاضر

في سنة ١٩٤٨ أخذت اكبر جرائد العالم كله تنشر اخبار اكتشاف مخطوطات قديمة جدًا وُجدت قرب البحر الميت وتتكلم عن عظم اهميتها .

بدويون من قبيلة التعاميرة الرحالة — المحتضرة وهم رعاة يتجولون في جنوبي اريحا أتوا بهذه المخطوطات اولًا الى بيت لحم ثم الى القدس. اول الشارين — لاربع كتب مجلس قطع — هو المطران السرياني الاورثوذكسي مار اثناسيوس يشوع صموئيل الساكن في دير القديس مرقس الشهير في المدينة القديمة (في ربيع ١٩٤٧) ثلاثة كتب اخر بستّ قطع اشتراها في نشرين الثاني الاثري الكبير الاسرائيلي ل. و. سوكنيك .

السيد المطران صموئيل راغبًا ببيع مُقتناه بثمن كبير عرض بتحفظ أدراجه لعدة اشخاص مختلفي المعرفة جدًا .

وكاد هذا التلاعب يدوم زمانًا طويلًا دون فائدة لو لم يعزم المطران اخيرًا على السماح لعلماء اختصاصيين برؤية الأدراج باكثر من عرض سريع فقد رضي في الآخر باظهارها واعارتها لِتُفحص لمدرسة التفتيش الاميركانية (American School of Oriental Researches) المقيمة في المدينة الجديدة من جهة المتحف . مُرسَل المطران لم يجد المدير السيد ميلور برّوز لانه كان اذ ذاك يتجول خارجًا عن فلسطين لكنه وجد اثنين من معاونيه كلاهما من الشبان صار اسمها مذ ذاك شهيرًا وهما وليام هـ. برونلي وجوهن س. تريفور . وهذان ما لبثا ان عرفا تاريخ الآثار التي استلماها وعظم قدمها وتحققا وجود كتاب لاشعيا وتوصلا الى اخذ صورة فوتوغرافية لكل الادراج الا لواحد عالجا عبثًا حله وتمكنا ايضًا من أخبار « البرايت » العظيم من جهة المحيط الاخرى فانتفض حالًا بحثية .

جرائد العالم باسره وقد نبهتها بذلك اسرائيل ايضًا رددت بجلبة صداه منذ نيسان . لكن الحالة لم تكن سهلة في القدس لان كل تنقل كان اذ ذاك عسيرًا ومعرضًا للاخطار . دير القديس مرقس عينه أصيب بضرب القنابل . ثم ان بروهله وتريفر وبروز تركوا البلاد عائدين الى اميركا . قد اخذوا ..

الصحائف الفوتوغرافية وفي مدة سفرهم بالبحر اهتموا باعداد طبعات مستقبلة . والمطران صموئيل باس من بطريركه سافر هو ايضاً الى اميركا آخذاً معه المخطوطات المشهورة . كان هذا التصرف غير قانوني لكن له عذره وهو انه لم يكن حينئذ في القدس سلطة محدّدة فان الانتداب البريطاني كان قد انتهى .

هوذا قائمة هذا القسم الاول من الاكتشافات :

١ً : مقتنيات المطران صموئيل

١ً : درج يحتوي كتاب اشعيا عجيب يحفظه كامل او تقريباً كامل . رغماً عن قِدَمه وعن وضعة الكتابة – فانه مُثقَّل بنوع شاذّ مجروف لاحقة – (matres lectionis) لم يأتنا بمعارف جديدة فيما يخصّ نصّ الكتاب المقدس فانه لا يختلف الا قليلاً عن النصّ العادي او المأثور (massorétique)

٢ً : مجلّد محذوف منه في اوّله ومُتلف في مواضع اخرى يحتوي تأويلاً لكتاب حبقوق . هذا التأويل كان يفسّر النص المقدس بنوع موافق لتاريخ شيعة يهودية .

٣ً : درجان – وفيهما ايضاً خلل – كانا يحتويان مجموع تعاليم مختلفة ادبية ودينية ورسوم تهذيبية : قانون هذه الشيعة او قسم من هذه الشيعة المنقطعة الى حياة من النوع الرهباني . هذا الاثر سنوه منذ الاول الكتاب التهذيبي.

٤ً : درج خامس – مجلد مُفسَد جزئياً – لم يمكن حلّه في القدس ولم يُحلّ الا سنة ١٩٥٥ . لم يلاحظوا اولاً الا انه مكتوب لا باللغة العبرانية لكن بالارامية وبانه يحتوي ولا بدّ تأليفاً محرّفاً (Apocryphe) .

٢ً : مقتنيات سوكنيك

١ً : مخطوط آخر لاشعيا ناقص سيّئ الحال ذو نصّ هو عين نصّ الكتاب المقدس المأثور .

٢ً : اربعة ادراج او قطع ادراج فيها مواضع مُتلفة تحتوي مجموع اناشيد تخصّ هذه الشيعة .

٣ً : كتاب للشيعة عينها عنوانه : «سُنّة الحرب» . وقد سمّاه سوكنيك : كفاح ابناء النور ضدّ ابناء الظلمات .

سوكنيك في وسط المقاتلات بين اليهود والعرب حيث كثيرون من ذويه كانوا مُتجندين توصّل الى استباق نشرات الاميركان المقابلة بطبع كراسة جميلة في حزيران ١٩٤٨ بهذا العنوان : « ماغيّوت غينوزوت ميثرخ جنيزا قيدومـا شنيمشما بميدبّر يهوذا » — معنـاه : مخطوطات قديمة مُخفاة صادرة من « جنيزا » موجودة في برّية يهوذا - هذا العنوان يدل على انه اعتبر مغـارة الاكتشاف « جنيزا » (اي : محلّ توضع فيه المخطوطات التقايات) متعلّقاً بكنيس مفروض في هذه الغراري المقفرة . وهذا ظنّ بعيد التصديق . كراسة ثانية تبعت في سنة ١٩٥٠ . الكراستان كانتا تعرفان بمجموع الاناشيد وبكتاب سفـر الحرب لكن دون نصوص كاملة . الطبعة التامة تأخرت بسبب موت سوكنيك ولم تظهر الّا في سنة ١٩٥٤ باللغة العبرانية ثم في ١٩٥٥ باللغة الانكليزية .

بفضل جهود السيد و. برونلي ظهر بسرعة نصّ كتب ثلاثة من القائمـة الاخرى وهي اشعيا وتأويل حبقوق في سنة ١٩٤٨ ثم بعد زمن قصير كتاب التهذيب والترجمة الى اللغة الانكليزية في (Bulletin of American School of Or.R.) منذ ١٩٥٠ و ١٩٥١ بروّ وترينير وبرونلي أتموا عملهم بنشر مجلّـدين جميلين من « صور طبق الأصل » (facsimilés) .

اما المخطوطات عينها فلم تجد في اميركا من يشتريها . لم يتوصل سيـادة المطران صموئيل الى بيعها الا سنة ١٩٥٤ بثمن غالٍ ٢٥٠٫٠٠٠ دولار : اشترتها دولة اسرائيل وهي تجمع الآن معاً المخطوطات السبع الاولى .

دون انتظار الاكتشافات التابعة — ولم يكن من ينتظر اهميّتها — اقبلت جماعات علماء الكتاب المقدس والآثار وغيرهم من الاختصاصيين ذوي جـدارة مختلفة على الاستفادة من هذا الحظ . في اميركة وانكلترة والمانية وفرنسة وفي بلاد اخرى اتصلت البحوث الى تراكم الظنون والاوهام والى بعث مجادلات حامية.

نعلم ان السيد دوبون — سوتر أوّل مجرأة بعض المواضع من تأويل حبقوق بنوع انه اعتقد بوجود سرّ يسوع المسيح الجوهرية في شخصيّة رب العـدل اللغزية : الآلام والقيامة والمجيء المقبل حتى والاصل الالهي. كانت هذه تجربة مخطرة للغاية وهو نفسه تركها تماماً ثم رفضها كل العلماء ذوي الجدارة وقد اتفق هؤلاء بالخصوص على انه بموجب ما توحي به النصوص عبارات كثيرة يلزم ان

نفهمها لا عن ربّ العدالة لكن عن عدوه الكاهن الكافر وهـذا ما يغير كثيرًا اوضاع المشكلة .

والحق هو انه من هذه القطع ومن التي سوف تُضمّ اليها فيما بعد سينبعث أضواء ثمينة تنير المجتمع اليهودي في ايام يوحنا المعمدان وحياة المسيح التعليمية والكنيسة الاولى .

لو توقف الباحثون عند اوضاع الايام الاولى لربما بقيت ايضاً المجادلات دون جدوى وحقيقة الادراج نفسها مريبة .

المهمّ الاول كان على الاقل التفتيش عن المحل الذي فيه كان الاكتشاف.

كان بدويّو تعميرة قد تكلموا عن مغارة تقع في نواحي البحر الميّت وكان المكتشف معروفاً جيدًا ومُعيّناً وهو شاب من قبيلتهم اسمه محمد الديب . الرواية « الرسمية » تقول بانه وجد المغارة عند تفتيشه عن عنزة ضائعة وفي هذه الاثناء وقف ليستريح هنيهة ثم خطر على باله ليتلهّى ان يلقي حجرًا في ثقب فسمع له عند سقوطه صوت خزف يتكسّر وهذا ما حمله على الرجوع الى المغارة بعد زمن قليل مع ابن عمه احمد محمد فوجدا فيها ما عدا شقفاً مكسرة ثماني جرار صحيحة احداها تحتوي على مخطوطات . كان ذلك في شباط او اذار من سنة ١٩٤٧ .

كل العلماء الاوروبيين والاميركيين كانوا راغبين في الذهاب الى المغارة لرؤيتها . لكن احوال البلاد جعلت وقتيًا ذلك الجولان صعباً مخطراً خصوصاً للاجانب . في كانون الثاني ١٩٤٨ بواسطة ضابط انكليز من الجوقة العربية والضابط البلجيكي ليتونس مراقب جمعية البلاد المتحدة عُرفت المغارة المذكورة ثم بعد قليل ذهب الى زيارتها مناظر مصلحة الآثار الاردنية ج. ل. هاردنغ والاب المحترم دي فو وآخرون . لسوء الحظ كان قد مرّ فيها خفيةً قبلهم بقليل اناس حفروا الارض وقلبوا منظر المحل وقد تركوا عددًا من الحُرب ومن اجزاء مخطوطات . اذن مغارة الاكتشاف هي هذه ولا شك بعد بحقيقتها .

تنفتح المغارة في منحدر ارض تطلّ على البحر على حافة تالٍ صخري من جهة الشمال الغربي — الجنوب الشرقي يصل بزاوية حادّة الى شاطئ البحر الميّت في رأس فشكا بالقرب من واحة تسقيها مياه عين فشكا . قد استعملوا مدة من الزمان هذين الاسمين في النشرات لتعيين موقع المخطوطات .

في الشمال هذه الحفّة باتجاه طريق اريحا متوازيا يمتدّ وادٍ وادي قمران لا ماء فيه في اكبر جزء من السنة ثم من الجهة المقابلة لهذا الوادي رصيف تراب صعب المنحدر . على هذا الرصيف كانت تقوم انقاض باسم خربة قمران .

هذه الانقاض كانت قد بقيت دون كشف وهي معروفة من زمان طويل وبخصوص اهلها كانت التخمينات شتى : أتكون قلعة رومانية او مدفناً او عمارة عربية لم يكن من يعلم ذلك . يوجد حديث يعتمد على لفظ البدويين لاسمها « غمران » يقول بانها عمورة المذكورة في الكتاب المقدس .

السيد هاردنغ والاب دي فو بعد كشف قصير لهذه المواضع لم يريا جديراً بان يُعمل حفريات حقيقية فيها . لكن غيرهم كانوا يطالبون بها وخصوصاً العالم الكبير الالماني بول كهلي . ثم بوشر العمل دفعةً اولى مدة خريف وشتاء ١٩٥١ . كان رأي كهلي صائباً للغاية فان هذه الحفريات والتي تبعتها سنة ١٩٥٣—١٩٥٤—١٩٥٥ افضت الى نتائج عظيمة الفائدة .

في تلك الاثناء لم يخطر على بال التفتيش في مخاريب فشكا او مغاور اخرى في النواحي للبحث عما يمكن ان تحتويه هي ايضاً للاعتقاد السائد بانه ليس هناك ما يهمّ الا المخطوطات الكبيرة والجزئية التي وُجدت في المغارة الشهيرة ونظيرها الوحيدة .

لكن البدويّين كانوا قد لاحظوا اهمية عتائق صخورهم بنظر علماء الآثار وعدّدوا الفوائد العظيمة التي يمكنهم اجتناؤها .

اذن عادوا من جديد الى التفتيش في كانون الاول ١٩٥١ وبايديهم قسم آخر مختلف جداً عن الاول : فتشوا وجدوها في وادي مرّبعات على بعد ٢٥ كيلومتراً من جهة الجنوب وفيما كانت تحتوي عليه آثار تختص بعصيان اليهود الثاني من سنة ١٣٢ الى ١٣٥ من تاريخنا في زمان كان المتمرّدون يأوون الى هذه المغاور . تفتيشات رسمية تمت اثناء المخطوطات وآثار اخرى غيرها قديمة .

كذا حدث ايضاً لخربة مرد : انقاض دير مبنيّ هو ايضاً في موقع قلعة هيركانيون للاسوئيين . بعد البدويين جاء من لوقان علماء آثار ووجدوا نصوصاً بتاريخ نهاية العصر البيزنطي وبدء العصر العربي .

من محل آخر بقي مجهولاً جاء التعميرة سنة ١٩٥٢ بقسم آخر ومما يحتويه برديات نبطية .

هذه اللقطات التي بمحتواها وبمحلها الاصلي خريبة عن مجموعة قُران لها هي ايضاً اهمية كبيرة وسوف نعود الى الكلام عنها في آخر هذه الاسطر .

لكن بفضل مداخلة التعميرة المستمرّة كانت منحدر فشكا ونواحي خربة مزمعة ان تسلمنا كنوزاً اخرى عديدة .

بعد ذلك اضحت مغارة الاكتشاف الاول الشهيرة المغارة ١ (ق ١ في قائمة اصطلاحات « القمرانيين ») فانه منذ شباط ١٩٥٢ تثبّت بان البدويين قد وجدوا مستودعاً آخر (ق ٢) لكنه ليس غنياً جدًّا .

انتبه علماء الآثار الى ذلك فأسرعوا الى كشف منظّم لكل مخاريب منحدر فشكا على جبهة طولها ثماني كيلومترات . عشرون مغارة تقريباً كانت تحتوي آنية من الفخار تشبه التي وجدوها في خربة وفي واحدة منها (ق ٣) قد وجدوا مخطوطات احداها هي فريدة في نوعها : درجان من نحاس عليها نصّ عبراني منقور . (٢٢—١٠ آذار ١٩٥٢)

بعد انتهاء هذا العمل غلب الظنّ بان اللقطة اكتملت وان بضاعة آثار قمران كلها قد جُمعت .

كان هذا الظنّ باطلاً فالتعميرة ابطال الكشف الاثري الحقيقيّون اثبتوا بعدئذ ذلك جليًّا ان المحل الذي تمّ التفتيش فيه هو منحدر من حجر كلسي جيد ثُقبت فيه اغوار قادرة على مقاومة الاجيال وتقديم ملاجئ امينة ولو جافية للانسان ولمخطوطاته . اما من جهة الوادي الاخرى فكان يوجد ثقوب مفتوحة لكن في تراب كلسيّ ممزوج بصلصال وهي قلما تجذب الناظر اليها . اذا افترضنا بان هذه الثقوب هي مداخل لمغاور قليلة المتانة فهل يطرأ على فكر انسان بان يعهد اليها بودائع ثمينة وهل يمكن ان تحفظها مدة اجيال صالحة لافادة ولو غير صحيحة .

البدويون انفسهم لم يكونوا بلا شك يحسبون ذلك لو لم يدفعهم اليه ذكر حادث قديم شبيه بالذي حدث لمحمد الديب سنة ١٩٤٧ . رجل من القبيلة شيخ مع الشبان يتكلمون عن اعمالهم الرابحة فرأى ان يتكلم هو ايضاً، لقد حدث

له قديماً ايام شبابه انه كان يوماً يتبع في الوادي حجلة وانهـا ذهبت واختفت في ثقب باتجاه الخراب فدخل هو ايضاً الى الثقب ومنه اخذ مع الحجلة سراجاً عتيقاً وآنية من الفخار . فاستفاد سامعوه من هذا الخبر وبعد زمن قليل شبان اخذوا معهم حبالاً وزوادة وادوات ومشاعل وتوجهوا الى الغار الذي دلت عليه اقوال الشيخ ، فكان لهم الحظ بوجودها ولما وصلوا الى داخلها اخذوا بتعزيل تواب الردم الذي كان يغطي الارض لقد التزموا بقلب عدة امتار مربعـة من التراب وحينئذٍ رأوا امامهم مستودعاً خارق العادة اغنى من كل مستودعـات النواحي (ق ٤) كان هناك مخطوطات قد لوّثها الوحل ممزّقة اجزاء لا شكل لها ، لكن بمقدار غير عاديّ . آلاف من قطع الجلد الصغيرة وُجدتْ هناك وهي توازي تقريباً اربعمئة مخطوطة .

مستودعات اخرى اقل اهمية (المغاور ١٠—٥) اكتُشفت بقرب الخرابب أُخذ منها كل ما احتوته

الاكتشاف الاخير حدث في ربيع ١٩٥٦ في منحدر فشكا . كان هنـاك غار مردوم المدخل ولم يكن ما يدلّ على وجوده الا شقّ بارز فوق كومـة القضض . مذاقة التعيرة العجيبة الرغيبة وحدها قدرت ان تكشفها ..

وكانت التعيرة قد استفادت فائدة ضخمة من المغـاور الاولى وخصوصاً من المغارة ٤ الخارقة العادة . قد دفعت حكومة الاردن خمسة عشر الف ليرة ستيرلنغ لكن هذه القيمة لم تكف فاضطرت مؤسسات علمية عديدة ان تزيد عليها حصتها مما وجب دفعه .

احد عشر مستودعاً من المخطوطات (المغاور ١١—١ منها ١ و ٤ و ١١ هي الاهم) هذا هو عدد اكتشافات قمران الحالي وهي تكوّن مجموعاً متجانساً هو كما سنرى متناسباً مع سكان ابنية الرصيف المجاور . الى هذا المجموع أُضيف ما أوتي به من مختلف المخطوطات وآثار شتى لتواريخ مختلفة وُجدت ابعـد جنوباً وشرقاً في وادي مرّبت وخربة ميرد .

كل ما اعطته هذه الاكتشافات مجموعٌ اليوم اقلّ مـا يكون وقتياً في متحف القدس الاردني ما عدا سبعة ادراج المغارة الاولى فهي بحوزة اسرائيل كذلك ما تبقّى بعد عند البدويين ولسوء الحظ ايضاً يوجد قطع عنـد افراد

اشتروها ولا يقدرون ان يفيدوا منها البتة .

المجموع جسيم وأجسم منه العمل الذي يتطلّبه.

بعد الحصول على محتوى المغارة ٤ صار من الواجب اقامة جمعية دولية مؤلفة من اختصاصيين من شتى الطوائف المسيحية يهتمون ببسط الادراج وتصنيفها وتصويرها وقراءتها وترجمتها : عمل عظيم للغاية .

اعضاء هذه الجمعية هم: المونسنيور ب. و. سكيفن معلم في جامعة واشنطون الكاثوليكية . و ف. م. كورس من «مك كورمك تيولوجيكل سمينارى» (Mc Cormick Theological Seminary) وهو متفوّق في علم الخطوط والكتابات العتيقة. و ج . م. الغرو مساعد في جامعة مانشستر . و ج. ستروغنيل من اكسفورد . و س . ه . هوتزنفر من جامعة غوتنغن والاب جان ستاركي والاب ج. ت. ميليك وكلاهما على حساب المركز الوطني الفرنسي للتفتيش العلمي (Centre national français de la Recherche scientifique) . مهمة خصوصية تسلمها الاب م. بانيا وهو معلم في جامعة تولوز الكاثوليكية فقد فوّض اليه امر القطع التي أخذت من المغاور ٢ و٣ و٦ .

يتوقعون نشر عشرة مجلدات للطبعة التامة للكل بهذا العنوان: اكتشافات في برّية يهوذا (Discoveries in the Judaean Desert) ظهر منها الاول فقط في اكسفورد سنة ١٩٥٥ وهو يختص بالقطع المكتشفة في المغارة الأولى .

قطع جديدة نُشرت على حدة خصوصاً في مجلة الكتاب المقدس(Revue Biblique) ومجلة تأليف الكتاب المقدس (Journal of Biblical Literature) . فيما يخصّ القطع التي لم تُنشر مع التي حُقّق فيها حديثاً أعطانا عدة معلومات خصوصاً كتاب الاب ميليك فانه جدير ليكون في طليعة المستعلين في هذا الموضوع.

اننا نرى مفيداً اختتام هذا العرض التاريخي للاكتشافات بموجز تاريخي:

— بد. ١٩٤٧ : اكتشاف المغارة . اكتشفها التعيري محمد الديب — في مدة ١٩٤٧ : بيع المخطوطات السبع الاولى جزء منها للتروبوليت صموئيل وجزء للجامعة العبرية .

— سنة ١٩٤٨ :التثبت من المخطوطات والابتداء بنشرها — بد. مباحثات مهمة بين العلماء. ردّدت شتى اصدیتها التآليف الكبيرة والملأ .

– سنة ١٩٤٩ : التثبت من المغارة ١. دوام المجادلات دون ان يقع امر جديد يثيرها .

– سنة ١٩٥٠ : لم يحدث حادث جديد في الموضع .

– سنة ١٩٥١ : لُقطات البدويين في وادي مرّبط. اول مباشرة حفريّات في خربة قمران.

– سنة ١٩٥٢ : السنة الكبرى للاكتشافات .

حفريات في وادي مرّبط . اكتشاف المغارتين ٢ و ٣ (الربيع) . الصيف والخريف : يجد البدويون خربة ميرد ثم المغارة ٤ . تفتيش واكتشاف المغاور ٥ و٦ و٧ .

– سنة ١٩٥٣ : حفريات بلجيكية في خربة ميرد .

: تفتيش جديد في خربة قمران .

– سنة ١٩٥٤ : تفتيش ثالث في خربة قمران . دولة اسرائيل تشتري المخطوطات من المتروبوليت صموئيل .

– سنة ١٩٥٥ : تفتيش حفريات رابع في خربة قمران ونواحيها وكشف المغارة ١١ .

تاريخ مخطوطات قمران

قبل الحفريات في قمران من سنة ١٩٤٨ الى ١٩٥١ الادلة المساعدة على تاريخ المخطوطات التي وُجدت في نواحي قمران لم تكن واضحة بالكفاية. علم الخطوط والكتابات القديمة كانت تشير ولا بدّ الى قدم كبير لكن يصعب تحديده . طريقة الراديو – كربون، التي استعملت باتلاف اقمشة كانت مع المخطوطات، اعطت عند الفحص سنة ٣٣ من تاريخنا . لكن هذا الاسلوب احتمال خطأ قد بلغ الى مئتي سنة فتكون اذ ذاك المدة متراوحة بين ١٦٧ الى ٢٣٣ من تاريخنا .

علماء عديدون خصوصاً البعيدون عن موقع الاكتشافات او هم مؤرخون اكثر مما هم علماء بالآثار كانوا يميلون مبدئياً وتحفُّظاً لتواريخ متأخرة . لذلك نرى العالمين الكبيرين في الامور السامية بول كهلي و ج. ر. دريفر يدفعان تاريخ المستودع الى الجيل الثالث بل حتى القرون المتوسطة . علماء اسرائيليون

اتوا المجادلة بمعلومات ثمينة لكن ايضا بآراء متصلبة للغاية فبرأي دل ميدكو وسوكنيك نفسه مستودع مخطوطات باللغة العبرانية هو ضرورة « جنيزة » كنيس ولو وُجد في برية متعزلة . وسالومون زيتلين مدير مجلة (Jewish Quarterly Review) ارتأى اعتمادًا على مبدإ اول للبحوث اليهودية بانه « لا تآويل اقدم من العصور المتوسطة والحال ان مكتشفات البحر المائت تحتوى تأويلًا . اذن . . . »

بالعكس يمثلان كبيران للتفتيش في نرضه السيد هاردنغ والاب المحترم دو فو ومعهما آخرون يرتأون حسب ادلة الآنية الخزفية بان جرار المغارة هي من العصر اليوناني لا الروماني فيكون اذن المستودع سابقًا لتاريخنا بمئتين سنة على الاقل .

دون اثباتات جديدة أكان ممكنًا التوصل الى حلّ اكيد . هذه الاثباتات لحسن الحظ اعطتها بعدئذٍ حفريات خربة قمران .

فقد كشفت — دون ان تعطينا مخطوطات — عن ابنية تقابل بنوع جلي مستودعات المغاور كانت تسكن فيها الشيعة اليهودية التي يكلمنا عنها «التأويل لحبقوق» و«كتاب التهذيب» وقد وجدوا ايضًا فيها آنية من خزف تشبه التي وُجدت مع المدارج . وجدوا ايضًا فيها نقودًا تدلّ دلالة تبين ثابتة على ان اعضاء هذه الشيعة كانوا قد اقاموا فيها عند منتصف الجيل الثاني قبل تاريخنا ويظهر جليًا جدًا بانهم لم يتمكنوا على المكوث فيها الى السنة السبعين من تاريخنا . ما عدا ذلك ان آثار حريق شديدة وتهوّر الجدران وسقوط سقف على كومة من الآنية المنتظمة تدلّ على ان الابنية سكنى هذه الجماعة لم تُترك اختياريًا لكنها هُدمت هدمًا . وان حدود سهام بثلثة الاجنحة خاصة بالسلح الروماني وبقايا ونقود تركها الجنود فوق الردم تساعدنا على تصوّر الفاجعة وتاريخها بتدقيق. يخبرنا المؤرخ جوزيف (يوسيفوس وهو يهودي) بان فسباسيان — وكان اذ ذاك قائدًا للجيوش المرسلة لاخضاع العصيان اليهودي — انتقل في صيف سنة ٦٨ من قيصرية الى وادي الاردن وهو رئيس للفرقة العاشرة (X^a Legio Fretensis) لا بد ان هؤلاء الجنود قد اهتموا معًا بتحصين اريحا وبالقضاء على كل جماعات المقاومة الموجودة والذين يأتون من بعد في النواحي . فكانت قمران من هذا العدد وعلى

اخربتها قد اقيم مدة طويلة مركز جنود للمراقبة .

اذن عندنا هكذا امر اكيد بخصوص تاريخ مستودعات المخطوطات فانها كلها سابقة لخراب ابنية خربة قمران الذي حدث سنة ٦٨ . قد يكون بعضها خاصًا بمكتبة شخصية لعضو من اعضاء هذه الشيعة كان يسكن في الليل على الاقل في المغاور لكن الاعمّ من هذه المخطوطات ولربما جميعها هي قسم من مكتبة عمومية قد أخفي عمدًا ووُضع باعتنا. في اجرار قد أغلقت غلقًا محكمًا خوفًا من نكبة منتظرة .

قد أخفيت المخطوطات المكتشفة في نواحي قمران قبل سنة ٦٨ فهي اذن سابقة بقليل او بكثير لهذا التاريخ . اسباب مأخوذة من قدم الخط تدل على ان بعضها قد كُتب قبل تاريخنا وان كتاب صموئيل المحفوظ بقطعتين او ثلاث قطع قد يكون من الجيل الثالث قبل السنة المئتين .

مضمون مخطوطات قمران

في قمران لم يجدوا لا مراسلات ولا اوراق اشغال ولا غيرها من كتابات اقل اهميّة فنوع حياة الجماعة لم يكن ليكثرها ولما دعت الحاجة الى انقاذ كنوز المكتبة من التراة لم يكن هنالك ما يستحقّ ذلك غير الكتب الحقيقية .

يمكن تصنيف هذه الكتب تحت اربعة عناوين :

كتب العهد القديم «القانونية الاولى» (التي يحتويها الكتاب المقدس العبراني).

الكتب « القانونية الثانية » (التي لا توجد في الكتاب المقدس العبراني لكنها موجودة في « السبعينية » اليونانية (la Septante)

كتب « محرّفة » (apocryphes) .

كتب الشيعة واكثرها دينية .

١ : كتب العهد القديم

الى اليوم لم يكن عندنا العهد القديم بلغته الاصلية الا بمخطوطات جميلة جدًا وفي حالة حسنة لكن اقدمها مجموع (le Codex Petropolitanus) مراسيم : هو من سنة ٩١٦ من تاريخنا . ليس عندنا الا برديّ مجهول التاريخ، البرديّ « ناش» يحفظ اسطرًا مكتوبة من عهد قديم حقًا .

حالة تقليد مخطوطات العهد القديم هذه. كانت جديرة بالاسف بالخصوص لانها كُتبت بعد ان ثبّت ربانيون متخصصون نصاً منتخباً بتدقيق ، وكانت تُنسخ بامانة خارقة العادة بحيث ان مفسري الكتاب المقدس لا يجدون فيها شيئاً من الفروق بالنسخ : من هذه الفروق التي فيها يبقى احياناً النصّ الاوّل الحقيقي والمعنى الصحيح لعبارات لا تزال تُفهم بغير معناها الحقيقي . النصوص الكتابية التي وُجدت في مُربَّط وهي تابعة لهذا التثبيت المفرط بدقّته فقط لنا منذ زمن قديم . ما عسى مخطوطات قمران تعطينا بهذا الخصوص .

لقد اعلمتنا خاصّةً بان نصّ الربانيين او النص المأثور (massorétique) يطابق تقليداً ثابتاً لا يعارضه الا مثال اصليّ واحد كان مترجمو السبعينية قد اعتمدوا عليه . مخطوطات قمران تتبع اغلب الاحيان هذا المثال لا المثال المأثور فيما يخص الكتب التاريخية وقد يكون هذا المثال الاثبت فيما يخص هذه الكتب.

ما عدا هذه النتائج العمومية تعطينا مخطوطات قمران الكتابية عدداً من الفروق منها جزء صغير وُجد في مخطوط المغارة ١ الشهير ومن المحتمل ان يتخذوها كقراءة ثابتة لبعض كلمات اشعيا .

مغاور قمران قد أعطتنا — بمخطوط تامّ تقريباً لاشعيا وبقطع مختلفة القدر واحياناً عظيمة لسائر الكتب — نصوص كل كتب العهد القديم العبراني ما عدا كتاب استير . عندنا قطع لاكثر من عشر مخطوطات مختلفة لتثبيتة الاشتراع واشعيا والانبياء الصغار والمزامير . المغارة ١١ كانت تحوي درجاً للمزامير لم يُدرس بعد ومخطوطاً لسفر الاحبار ومخطوطاً آخر لكتاب ايوب وهو منقول الى اللغة الآرامية .

في المخطوط الكبير لاشعيا نلاحظ في الفصل الثالث والثلاثين اسقاطاً قد يكون اثراً لزمان اكثر قِدَماً لم تكن بعد فيه قد تحقّقت وحدة الكتاب الحالية .

وقد لاحظوا ايضاً بان كتاب المزامير يتبع ترتيباً مختلفاً عن ترتيب كتبنا. بعض القطع تقرّبنا كثيراً حتى من تاريخ تأليف الكتاب . هكذا نسخة سفر الجامعة تتبعه بقرن واحد فقط ونسخة دانيال قد يكون التأخر نحو خمسين سنة .

٢ : نصوص كتب العهد القديم « القانونية الثانية » .

نعرف بان « جنيزة » القاهرة — وقد انتفع منها البعض منذ سنة ١٨٩٦ الى ١٩٠٠ — قد سلمتنا النص العبراني لكتاب يشوع بن سيراخ (Ecclésiastique) وكان الى هذا التاريخ عندنا مجهولاً . وفي المنارة ٤ بين القطع التي ظهرت وُجد اجزاء من نفس هذا الكتاب (٦ : ٣١—٣٣) .

أحدث هو ظهور كتاب طوبيا وكان القديس ايروثوس قد وجده واستعمله وهو باللغة الآرامية وحسب قول القديس باللغة الكلدانية في قران وجد منه قطع بالآرامية (مخطوطتان) وبالعبرانية (واحدة) .

٣ : الكتب المحرّفة (Apocryphes)

من هذه الكتب نعرف للعهد القديم ثلاثة كباراً محفوظة في مخطوطات مسيحية بترجماتها اليونانية واللاتينية وخصوصاً الاثيوبية : كتاب اليوبيلات وكتاب اخنوخ ووصية الآباء الاثني عشر . رغماً عن تأكد وجود نصوص مسيحية مدرجة فيها كانوا يظنونها جوهرياً من اصل يهودي .

ان اكتشافات قران قد ثبّت هذا الظن بخصوص كتاب اليوبيلات لا فيما يخص اخنوخ ووصية الآباء . من تراجم اخنوخ المسيحية يظهر ان جزءاً كبيراً هو ادراج المؤلف ومن المحتمل ان يكون هذا يهودياً - مسيحياً وحسب شهادة عشر من مخطوطات قران لم يكن للاقدمين اليهود فيها الا جزءان اي سفر اخنوخ ثم رُؤياه وقد يكونان كتابين منفردين . قطع من مخطوطات المغاور تعطينا وصيّة للاوي واخرى لنفتالي وقد تكون هاتان الوصيّتان المفترقتان قطعتين استفاد منها واوجزهما يهودي - مسيحي من الجيل الثاني وادرجها ببراعة في مجموع كامل « لوصايا ابناء يعقوب الاثني عشر » .

مع الكتب المحرّفة المعروفة برزت تآليف اخرى . الدرج الآرامي بعد التوصل بصعوبة الى حله ومعه ادراج اخرى للتروبوليت صموئيل يعطينا تفسيراً لكتاب التكوين من نوع المدارش الساذج . هذا الكتاب المبتور في اوله يبدأ بكتاب للاملك وهو يخبر فيما يخبر به عن ثقل نوح عند ولادته . ثم يتبع كتاب لنوح وهو يبتدى بهذا التصريح الوَرِع: « كل ايام حياتي قلت الحق دائماً » .

ثم تأليف باسم مستار ارميا عندنا منه بضع نسخ لا يشبه ما كنا نعرفه الى الآن من هذا النوع .

ودرج صغير ارامي عنوانه صلاة نابونيد وهو جدير بالانتباه .

نعرف الفصل الرابع من كتاب دانيال الذي يكلم فينا المخيلة خصوصاً : يعرض علينا نبوخذنصر العظيم مُصاباً بمرض غريب يضطره مدة سبع سنين الى ان يعيش حياة حيوان وحشي في قصره في بابل ثم يشفى بوساطة دانيال بعد ان يصلي الى الإله الحقيقي . التأويل حتى الذي يميل الى قبول حقيقة الكتاب التاريخية قبولاً تاماً كانت مرتبكة لا فقط بنوع المرض الشاذ لكن ايضاً باسم نبوخذنصر وباسم بابل . الامكان الوحيد لوجود ملك كلداني في شدة طويلة الأمد هي باسم خليفته نبونيد المنفرد مدة سبع سنين لا في بابل لكن في واحة تيا . وهذا عارض كانت تواريخ المملكة تذكره صريحاً . القطعة الجديدة تخص نبونيد بهذا الحادث وتعين مدينة تيا محلاً لمرضه واهتدائه الى الإله الحقيقي . هذه رواية اولى اقل مشهداً واقل نبوة عن الحوادث التاريخية للحادث الشهير الذي وقع لنبوخذنصر المتحوّل الى بهيمة .

٤ : كتب جمعية قمران

في المكتشفات الاولى كان يوجد مدرج بمقطوع الى جزئين مُبتور في اوله يحتوي قانون جمعية مقيمة في قمران سمّاه الناشرون « كتاب التهذيب » وهو مجموع اوامر وتعليم ادبي ينتهي بنشيد . هذا الكتاب يكلمنا طويلاً عن اعمال ساكني هذه المحلّ وعن افكارهم لكنه يمتنع عن تفصيل ظروف الحياة العادية والمعيشة المشتركة التي كنا نتمنى معرفتها .

قطع المغارة ١ زادت عليه « المزامير » صفحة ظنوها اولاً شيئاً من الجزء البدئي الناقص من كتاب التهذيب لكنها اقل ما يكون من النوع عينه .

بعد ذلك ومراراً عديدة مع قطع من كتاب التهذيب برزت اسطر من تأليف كان لدينا اصله من « جنيزة » القاهرة « حجة الشام » وهو باق الى الآن متفرداً : هو قانون مثل كتاب التهذيب يشبهه كثيراً لكنه لا يفرض عند الذين يتبعونه عين انواع الحياة الاجتماعية بحصر المعنى . وجوده في قمران يدل على

ان الاثنين يصدران من الشيعة اليهودية عينها وانه يمكن الانتفاع من الاثنين معاً للاجتهاد في تشخيصها . هذا ما علينا عمله فيما يأتي .

لتفسير حبقوق فائدة مختلفة فان له صفة خاصة . النص المقدس آية فآية يُطبّق على تاريخ الشيعة في مدة من الزمان لا يمكن ابداً ان يتجاوز السنة الـ ١٧٥ قبل تاريخنا ولا ان يتعدى جلوس هيرودس حتى ولا ان يتصل به في سنة ٣١ قبل تاريخنا . أيكونون قد اعطونا هذا التاريخ صريحاً : المثلان الكبيران هما رب العدالة وهو معلم الشيعة الكبير . ثم خصمه الكاهن المنافق وهو أو ليس بعينه رجل الكذب بينما يدخل الجناء من بيت انسالون ويتربّص « الكثيم » الهائلون . هل نحن ازاء براعة انشائيّة او حاجة حقيقية للتكلم في التخفّي بالفاظ غامضة . مهما كان الحال النتيجة هي عينها واذا رأى هذا او ذلك من الخياليين ان يعالج الترجمة فان انتظار ترجمة واضحة لهذا النوع من الرؤيا قد يدوم دواماً لا حدّ له .

كتاب جميل وهو متلف لسوء الحظ يحتوي اناشيد (هُدَيوروث) يبدأ بـ : « اشكرك يا رب لأن ... » مثل صلاة الفريسيّ في الانجيل لكن بروح تواضع وعواطف سامية امام الله . هذه الاناشيد ينشدها تبّاع شيعة قمران في صلاتهم العمومية او الخصوصية وكأنها تلتمع صريحاً الى حياة تجتازها المحن وقد غمرتها العطايا الإلهية يشهد الضمير لها بانها قد علّمت بنفوذ لعدد كبير الطريق المؤدّية الى الله . قد تكون هذه الاناشيد من صنع ربّ العدالة نفسه يصف حياته او من صُنع احد المُحبّين به يتكلم باسمه .

اكثر غرابة هو « قانون الحرب » ويسميه سوكنيك « عراك أبناء النور وابناء الظلمات » حسب رأي ايغال يادين ابن سوكنيك وهو متخرّج في امور الحرب من سنة ١٩٣٩ الى ١٩٤٤ ثم سنة ١٩٤٨ نجد في هذا الكتاب تماماً فنّ الحرب الحقيقي مأخوذاً عن كتب فنّية رومانية . لكن ذلك لا يقلّل ما فيه من الغرابة والخيال . فيه وصف حرب تحت ادارة الكاهن الاعظم نفسه يقود فيه الحركات العسكرية كهنة بصوت الابواق ، ويأتي انكسار العدوّ واندحاره في الوقت المعيّن . حسب قول السيد برّوز : « قصة الحوادث ثم وجود عدوّ لا بدّ من انهزامه او سقوطه ماتاً في الوقت الموافق يذكّرنا بالاحرى رقصاً لا

قتالا » (ص ٢٤) . الخصم هو جيش بليعال وهو مركّب من « كتّيم » آثور و« كتّيم » مصر وفرق آدوم ومواب وعمون والفلسطية . الى اي شيء تعود هذه التخصيصات الخيالية . ظنّ البعض بانها تتكلم عن قتال تاريخي لكن هذا امر عسر القبول . ويصعب ايضاً علينا ان لا نرى فيه الا استعارات حرب روحية . . ما نراه فيه بجلاء هو امتداد الوطنية عند الشعب اليهودي في تمرّديه ورجاؤه بالمسيح الآتي المقترن بهذه الوطنية . لا بد ان عدداً من رهبان قمران كانوا ينتظرون قريباً مجيء المسيح او بالاحرى مجيء المسيحين مسيح هارون ومسيح اسرائيل ومعها حرباً ظافرة لابناء النور وهم قمران ومتشايعيه ضدّ بقية العالم وهم ابناء بليعال والظلمات .

من هذا الشكل عينه في انتظار المسيح يوجد مقتطفات من اقوال وشواهد مأخوذة من كتب العهد القديم أدمجت فيها عبارات من اناشيد يشوع المحرّفة وقطع متجانسة « الحلقة » الربانية تؤيد قوانين قمران بنصوص من التوراة و« الميشناروت » او تناوب العائلات الكهنوتية في الهيكل هي مفيدة لانها تعطينا تقديم الشيعة السنوي . كهنة الشيعة من سبب انشقاقهم ما كانوا يمارسون الخدم الدينية في الهيكل ، اذن هذه الكتب ترجع الى حقّ رفضوه ظلماً وتنظر الى مستقبل ولواء سماوي حيث الخدم الدينية الموسوية سوف تدوم دائماً .

نذكر ايضاً بقايا تفاسير اشعيا وميخا وناحوم والمزامير ووصفاً لاورشليم السماوية وتناجيم وكتابات بحروف سرّية . ويظهر ان القائمة سوف تطول عندما يتقدم فحص قطع المغارة ٤ الشاقّ تقدّماً كافياً .

ننهي بكلام وجيز عن الادراج النحاسية التي وُجدت في المغارة ٣ التي يصعب حلّها كثيراً . هي لفائف معدنية طولها مترانِ واربعون سانتيماً . لو كان نصّها يقابل اشياء صحيحة لكان ثمنه لا يُقدّر فانه يدّعي بتعيين ستين مخبأ لكنوز مختلفة : ذهب وفضة وبخور وعطور ثمينة . هذا كله في امكنة شتى من فلسطين لكن في القدس خصوصاً وفي مقبرة قدرون . من جملة المستودعات : ستة آلاف ثقل (talents) اي ٢٠٠ طنّ (tonnes) من المعدن الثمين : نستنتج بان هذه القائمة هي مختلقة تماماً بانها عمل سذاجة مخيّلات صبيانية او سقيمة وقد يكون ساعد في عملها سارق ماكر محتال . عندنا غير امثال من هذا النوع من

الاقاصيص منها ما نشره سنة ١٩٠٧ احمد بك كمال :« كتاب اللآلئ المدفونة والكنوز المخزونة » .

شيعة قمران الاسانيون

مؤلفان من اليهود فيلون ويوسيف تركا لنا وصف شيعة يهودية : « الأسانيين » ويدّعيان بان عدد اعضائها بلغ تقريباً اربعة آلاف . ويوسيف يقابلها مع الفريسيين والصدوقيين كدرسة ثالثة . ينتج من مقالها ان تبّاع هذه الشيعة على الاقل عدد كبير منهم كانوا يعيشون عزّاباً ويلزمون انفسهم حياة شبيهة بحياة الرهبان المسيحيين : معيشة زاهدة وطاعة موجبة والشركة في الاموال والصلوات المطوّلة والشغل والاكل معاً . وهذا لكل من الاعضاء بعد نوع من الطلب او الابتداء يدوم سنتين .

والعالم الروماني بلين «القديم» الذي كان قد تجوّل في الشرق يخبرهو ايضاً بايجاز في كتاب علم الطبيعيات عن وجود الاسانيين وينذهل كثيراً من تبتلهم : « في غرب بحيرة الاسفلتيك (البحر المائت) يقيم الاسانيون بعيداً وراء منطقة الشاطئ المخرّة . شعب منعزل اغرب ما يكون دون نساء دون حبّ دون مال يعيش في صحبة «النخيل» وكان قد زار او على الاقلّ قد عاين هذا المقام في روايته عن سفره يلاحظ بعد ذلك بانه في الاسفل (infra) على الطريق كانت عنجدا اي عنجدي. ان استعمال بلين هذه الكلمة بمعنى « في مجرى النهر» الاسفل عندما يتحدث عن امكنة واقعة على جانب نهر وانّ العادة اعتبار البحر المائت كامتداد مجرى الاردن — كما تشهد بذلك مصادر اخرى — اننا نرى امراً صعباً عدم قبول وحدة مقرّ قمران وما رآه بلين ووحدة سكانه واسينيي بلين . اما هؤلاء فهم قسم من الشيعة التي عرفها فيلون ويوسيف .

قبل سنة ١٩٥١ والحفريات في خربة ، اعتماداً على آثار قليلة جداً كانت قد عُرضت تحقيقات اخرى بخصوص مؤلفي « كتاب التهذيب » وتفسير حبقوق . رأى بعضهم بانهم الابيونيون او يهود — مسيحيون او يهود « قرائيون » من العصور المتوسطة . لقد مرّ زمن هذه التخمينات. يريد دل مديكو الى الآن ان يجد في قمران غير الاسينيين وهم « الغيورون » (Zélotes) وهؤلاء هم حزب

وطني اكثر مما هم حزب ديني. قد لعب دوراً كبيراً مدة التمرد الاول فيكون «رب العدالة» القائد ماناهين ابن يهوذا الجليلي ويكون خصمه اليعازار الحبر الاعظم الاخير. رغماً عما جاء به دل مديكو من المهارة للدفاع عن هذا الرأي وما قيل عن قبول السيدين دريفر وروث (وهما فائقان في اختصاصهما) لهذا الرأي لا يمكننا بالحقيقة ان نأخذ بعين الاعتبار رأياً لا يتفق الا اتفاقاً لا يُذكر مع معلوماتنا الثابتة بخصوص هذه المسألة. لم يقدر الفيورون ان يفتكروا بالعيشة في قمران خاضعين لقوانين كتاب التهذيب الصارمة مدة سنين تزيد على المئة ولم يقدروا خصوصاً قبل سنة ٦٨ تأليف «تفسير حبقوق» وهو يتكلم عن موت الحبر الاعظم المنافق اذا كان هذا اليعازر فانه سنة السبعين كان حياً ونشيطاً.

لكي نعرف كيف كان يعيش سكان قمران وهم على رأينا الاسينيون فلنتبع خطوات الحفّار لنتفحّص مبانيهم.

نحن على رصيف كلسي قليل الارتفاع تحيط به منحدرات وعرة. من جهة الجنوب وادي قمران. في اكبر جزء من السنة لا ماء فيه لكن المياه تجتمع فيه في الشتاء ومنه تنحدر الى البحر المائت. هذا الماء ذخر ضروري للدير الذي هو بعيد عن كل ينبوع ماء. قناة طويلة تُرى الى اليوم مركّبة على مجرى النهر الفوقاني توصل مياه امطار الشتاء الى مجموع صهاريج او احواض عددها عشرة. على تصميم الحفريات هذه القنوات تذكّر بالمجرى الدموي في جسد حيّ. وفي الواقع يوجد شيء من هذا فان الماء والماء النير كان ضرورياً بنوع خصوصي للاسينيين من اجل تعصبهم في الطهارة الشرعية فانهم كانوا يغطسون في الماء مرارا عديدة. هل يا ترى كان بامكانهم ان يجدّدوا مياه الاحواض بتواتر كما تقتضيه المحافظة على الصحة: سؤال في محله.

جزء من ابنية الدير كان مرتكزاً على اساسات اقدم منه بكثير. السيد ميليك يظنها مدينة الملح القديمة «عير ها ميلاح» التي يتكلم عنها يشوع. (يشوع ١٥ : ٦٢)

ثم ابنية اخرى صغرى موجودة في النواحي وهذه الاسوار لربما كانت جزءا من البروج او القلعات التي شُيّدت في ازمنة عوزيا. (سفر الايام ٢٦ : ١٠)

مجموع ابنية الدير يختلف تماماً من القرية طوله نحو ثمانين متراً وكذلك عرضه وليس منقسماً الى محالّ سكنى فلا بدّ انّ اكثر الذين كانوا يجتمعون فيه كانوا ينامون في محالّ اخرى : في المغاور التي تركوا فيها شقّاً من الفخّار او في خيم او في اكواخ .

يوجد جزءان : البناء الاعظم وهو مربّع وكان في احد زواياه نوع من البروج وبجانبها قاعة الاجتماع وأبعد منها من جهة الغرب مجموع مرتبك سمّاه الحفّارون « الحي الصناعيّ » :

الارض التي تأخذها الصهاريج فسيحة جدًّا . ثم قاعة في اسفل حيطانها دُكَك قد تكون محل الاجتماع لدرس الشريعة ولمجالس الرؤساء . قريباً من هناك مطبخ فيه مواقد تُعرف بسهولة وفي الحيّ الصناعي وغيره من الامكنة محالّ لشتى الاشغال : مطحنة ومَغسل ومصبغة وفاخورة وغيرها لا يظهر جليًّا المقصود منها لربّما للنسيج ولمسل الثياب . ثمّ حجرة طولها ثلاثة عشر متراً وعرضها اربعة امتار فيها طاولات ضيّقة بوجه سويّ والواح محفورة فيها مخاريب ويتمّم الكل محابر من نحاس ومن خزف وآثار حبر نباتيّ : هذا محلّ للكتابة . كما ان الكتبة كانوا اسرائيليّين وكان عليهم ان يغسلوا حسب النظام الطقسي ايديهم كل مرة عند كتابة اسم يهوى كان لا بد من هذه المخاريب المثلثة ماء .

في محل مبتعد قليلًا كان اسطبل .

في الجنوب كانت القاعة الكبرى طولها اثنان وعشرون متراً وعرضها اربعة امتار ونصف المتر . لا بد انها كانت للاجتماعات الاهمّ وللاكل . في زاوية الجنوب الغربي يوجد نحو مئة آنية للمائدة قد تكون الجماعة استعملتها للاكل عشية نكبة سنة ٦٨ . قريباً منها ذخر آخر من هذه الآنية موضوعة بترتيب يحتوي على اكثر من الف آنية .

من جهة الدير الشرقية المدفن تفرق بينها ساحة . عدد القبور فيها الف ومئة كلها تمتد من الشمال الى الجنوب ضد العادة الجارية في الشرق التي تمتد قبورها من الشرق الى الغرب . على القبور لا توجد اسماء ولا بلاط ببناء . لكن فقط كُوَم من حجارة تُدفن الجثث في عمق متر واحد او اكثر لا يتزل معها الى القبر شيء لا حُلى ولا آنية ولا نقود . مدفن انسيني قرأن كحياته كانت فقيرة وزاهدة .

حسب عبارات كتاب التهذيب كان قد طلب قبوله في الشيعة وكانوا يسمونها « العهد » : « لطلب الله لعمل ما هو صالح ومستقيم امامه كما امر بذلك بواسطة موسى والانبياء عبيده. لكي احب كل ما اختاره وابغض كل ما رذله ولكي ابتعد عن الشر والتمسك بكل الاعمال الصالحة وممارسة الحقيقة والعدالة والحق في البلاد ولكي لا اعود امشي في عناد قلب مجرم وبعينين ملوثتين دنساً وانا اعمل كل شر . ثم لكي آتي بالذين يقدّمون انفسهم لحفظ شرائع الله الى دخول عهد الحب الذي لا يتزعزع ولكي نكون متحدين بموجب مقاصد الله ونمشي امامه في الكمال ممتثلين لكل ما اوحى به فيما يختص بازمنة شهاداتهم المحدّدة ولمحبة كل ابناء النور كلًّا منهم بحسب النصيب المدّخر له في نيّات الله وابغض كل ابناء الظلمات كلٌّ حسب وزره بموجب انتقام الله . »

(برّوز ص ٤٢٤ بدء الدرج)

اذن طالبُ نوع حياة قمران كان مبدئياً راغباً في حفظ شريعة موسى حقاً وقاماً وتعاليم الانبياء التي تكملها ولم يكن يفكّر بانه يصبح مُشاقّاً لكن عضواً لاسرائيل الحقيقي . كان يعتقد بانه يدخل شرعاً في العهد ويكون ابن النور ويفترق من جماعة ابناء الظلمات اللعينة . هو مدعوّ الى حبّ سامٍ للصلاح ولارادة الله والى محبة شديدة لرفقائه في هذا القصد الشريف والى بغض شديد ايضاً للشرّ وفساد الاخلاق ولكل ابناء الظلمات وهذا البغض لا يُفقط للامم لكن ايضاً لعدد كبير من الاخوة بالنسل الملعونين لمخالفتهم الائمة للشريعة . العهد الذي كان يدخله الراغب كان يحفظه بتدقيق . لقد كان هذا الذهاب الى قمران بكل معنى الكلمة تجنّداً .

« كل الذين قدموا انفسهم الى حقيقته يأتون بمعارفهم وقوتهم واموالهم الى جماعة الله حتى ينقّوا معارفهم في حقيقة وصايا الله ويدبروا قوتهم حسب كمال طرقه وحتى يتصرفوا باموالهم حسب مقاصده العادلة » (ص ٤٢٤) .

يحكم في قبول الراغب « مَن وُضع في رأس « الكثيرين » (وقد يكون : اعضاء الجماعة المهذّبين) والناظر (وقد يكون عين هذا الرئيس او غيره) كان يقبله « لطلب » يدوم سنة على ما يظهر — اذا حكم بقبوله — وفي مدة هذه السنة كان يقسر له قوانين الجماعة (ص ٤٣٣) .

يتبع زمن الطلب الابتدا. ويدوم سنتين . في ختام السنة الاولى « اموال المبتدئ واجرته كانت توضع (كوديعة) عند وكيل الاموال » دون ان توضع بعد في مُقتنى الجماعة .

في نهاية السنة الثانية هذه الاموال كانت تُضمّ الى مُقتنى الدير فيمكن الراغب الدخول الى المشرب المقدس : وهل يكون ذلك الّا الاكل مع الجماعة وكان له صفة دينية . وهكذا يضحي من الجماعة عضواً حقيقيًا فيها مهذّباً ونوعاً ما ناذراً النذور الرهبانية فيضحي واحدًا في عدد « الربّيم » والمترجمون يسمونهم تارةً « العنيدون » واخرى « الكبار » والتسميتان غير صحيحتين . وبصفته هذه — الا اذا تعرض لقصاص — يحقّ له الاشتراك في الشورى ويكون له صوت في المجامع .

في كل من مراحل طلبه كانت شورى الجماعة قد بتّت في امره فاذا قُبل نهائيًا يُقيّد اسمه في محل ثابت حسب تهذيبه وتصرّفه . لكن هذا نظام التصدّرات كان يمكن النظر فيه كل سنة لتقديم او تأخير الاعضاء حسب تصرّفهم .

بعقوبات مختلفة كانت تُقاصص المخالفات . موقف مخالف للحشمة كان يجلب لصاحبه ستة شهور حرمان من الطعام المقدس والحرمان نفسه مدة شهر فقط لمن يبصق او ينام او يقهقه في مدة الاجتماع . عقوبات مشابهة كانت تُفرض على الكاذب والمفتري والمنتقم والمتفوّه باقوال باطلة . اعلان كاذب بالاموال الشخصية كان يُعاقب بسنة حرم وتنقيص ربع من الطعام ولربما تقديم ربع الطعام القانوني فقط . الحرم النهائي الطرد كان عقاب الجرائم الكبيرة مثلاً التلفظ باسم يهوى وبلعنات وبالقدح على الجماعة وبالتذمّر ضد تأسيس العهد .

جزء عظيم من الحياة اليومية كان مخصّصاً للصلاة ولدرس الكتب المقدسة كانوا يصلون عند شروق الشمس وعند غيابها قبل الاكل وبعده ومدة ثلث الليل وهذا يبدأ بعد طعام المساء . كانوا ينصبّون على قراءة الكتب المقدسة والتفتيش عن الصلاح وتمجيد الله معاً .

من المحتمل ان بعضهم كانوا يخصّصون دائمًا او احيانًا بدرس الشريعة وحدها ، بينما كان الرؤساء مهتمين بوظيفتهم والمرضى والعُجّز مضطرين الى البقاء

في الدير او في اكواخهم . اما الآخرون الرجال الاقوياء فكانوا ينطلقون الى اشغالهم .

كانوا بعيدين عن المحال الآهلة وكانوا محتمين على تقليل مخالطتهم مع كل نوع من المنافقين اكثر ما يمكن . ولهذه الاسباب كان اهالي قمران مضطرين الى ان يقدموا لهم كل ما هو ضروري لمعيشتهم بتكبد تعب شديد لمرورهم في وادي الاردن . كان في الدير من الاشغال ما يكفي للجميع : مزارع عين فشكا وربما ايضاً غير قطع من الارض . ثم الاهتمام بالحيوانات الداجنة صيانة الابنية والقنوات هي اشغال يلزمها رجال كثيرون . كان عندهم اشغال مختلفة في شتى المعامل والخدم : في المخبزة والفاخورة والمغسل والمصبغة هذا ما عدا المكتب . يوسيف يأتي ايضاً بذكر السخرة : « بعد (طلوع الشمس والصلاة) يرسل الرؤساء كلًّا منهم ليشتغل بالمهنة التي يعرفها فيبقون الى الساعة الخامسة يشتغلون بكل قواهم » . وهكذا ايضاً بعد الظهر .

كان للاطعمة صفة شيء مقدس كما نرى ذلك في اوامر « اثر دمشق » فكانوا يهيئونه باهتمام خارق العادة فيما يختص بالطهارة الشرعية . تهيئة الاطعمة تهيئة بعضها على الاقل كانت تُعَدّ امتيازاً لا يُمنح للمبتدئين ولا للذين فُرض عليهم عقاب .

ما كانوا يبدأون بتهيئة الطعام الا بعد الاغتسال لا غسل اليدين والوجه فقط لكن بعد حمّام كامل . هذا ما يفترضه جلياً كتاب التهذيب فانه بخصوص الراغبين المرفوضين يقول : « لا يدخلوا في الماء لكي يمسوا طعام الرجال القديسين » . اذا اردنا ان نصغي الى ما يقوله يوسيف — ولو كان دائماً متّهماً بطلب تصوّرات إعلانية — نحضر مشهداً معجباً للغاية : « يجتمعون من جديد في محلّ واحد وهم يحترمون بعضائب من كتان ويغسلون كل جسدهم بالماء البارد وبعد هذا التطهير يجتمعون في حجرة خصوصية حيث لا يحق الدخول لمن ليس من الجماعة وهم لا يدخلون الى هذه المائدة الا اطهاراً مثلما في دار مقدسة ثم يجلس كل واحد منهم في محله فيقدم له الخباز خبزة ويضع الطباخ امامه صحناً فيه مأكول واحد فيتلو الكاهن صلاة قبل الاكل ولا يجوز لاحد ان يذوقه قبل نهايتها وبعد الاكل يصلي من جديد . (حرب اليهود ٢ : ٧ فقرة ١٣١ : ١٣٩)

كتاب التهذيب لا يدلنا ابدًا على ما كان يجري في قاعة قران الكبرى لكن في نص منه يكلمنا عن وجود غيرهم من جماعات العهد يقول ان جماعات من هذا النوع يجب ان تضمّ على الاقل عشرة اعضاء. احدهم كاهن ويجب ان ينصبّ كل واحد منهم بدوره على درس الشريعة ويلاحظ بان الطعام يلزم ان تسبقه بركة الكاهن: «عندما يهيئون المائدة للاكل او الخمر للشرب يمد الكاهن يده ليبارك باكورة الخبز والخمر» اللفظة المترجمة هنا بخمر ليست لفظة «يابين» العبرانية وهي ادقّ لكن لفظة «تيروش» وهي السُلاف او الخمر الحلو او غير مشروب حلو. من الممكن ان الاسينيين كانوا يمتنعون تقشفاً عن شرب الخمر الحقيقيّ ويعوّضون عنه بمشروب آخر غير مُسكر.

فيلون وبلين يثبتان تبتل الاسينيّين ويطنبان فيها وبالاخص بلين القديم وقد فتنه هذا النوع من الحياة وكما رأينا انه يعطي شهادة عن اناس لا نقدر بالحقيقة ان نعيّن لهم مقرًا الا قران.

لكن ليس في كتاب التهذيب ولا في غيره سطر واحد يجعل التبتل واجباً وقد يكون تقليدًا غير مدوّن يحرص على حفظه النسيك الذي عند دخوله الى الدير يختار الطريق الضيقة.

على الإقل في هذا القانون لا يُذكر قط نساء او اولاد فهذا بنوع مباشر تحريم تأسيس عائلة او ابقائها وهو بالحياة التي كان يوجبها والخضوع الذي كان يفرضه ما كان يبقي بالحقيقة لا الحرية الكافية ولا اسباب المعيشة الضرورية لحياة زوجية وللاهتمام باولاد.

لذلك رغمًا عن وجود هياكل عظام نساء في مدافن المقبرة نقدر ان نتأكد بان سكان قران كلهم او عدداً كبيراً منهم كانوا محافظين على التبتل. كتب يوسيف ما كتبه فرًا. وثنيين واهتمّ بعرض افكار اخوته اليهود بنوع يناسب قرّاءه لذلك تراه يفسّر لهم هذا التبتل مبرّراً اياه ببواعث نفور من الزواج وهي بواعث مبتذلة ومكروهة اذ يقول عنهم: «يخافون من فجور النساء وهم متأكدون بانه ليس فيهن واحدة تحفظ الوفاء لزوج واحد» وهذا اختراع مضحك لا يُصدّق. اذا لم يكن امرأة للاسيني في قران فذلك لانه لم يكن له وقت فيه يقدر ان يعيش معها ولا فلس لتدبير نفقات البيت. يمكن

ان يكون هناك غير اسباب. بعض رسوم القانون تدلّ على شعور حشمة وحياء حيّ . وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بتقدّم فضيلة البتولية عندهم . هؤلاء الزهّاد المتبتلون ليتمّموا بكمال شريعة موسى ولكي يبتوا بنوع اكمل واكثر ثباتاً في حالة الطهارة الشرعية يكونون قد شعروا ايضاً بان تزهّداً كهذا هو غاية طهارة داخلية اعمق .

لم تكن الحياة الاسينيّة في قمران وحدها ولو انها تظهر في قمران متميّزة بنجاحها لكنّ تباعها كانوا موجودين ايضاً في غيرها وليست قمران نقطة انطلاقها . فان مساحة خرائبها واسباب المعيشة فيها لا تمكننا من فرض وجود اكثر من اربعمئة راهب فيها والحال ان يوسيف وفيلون يتوافقان بالقول بان عدد الاسينيين هو اربعة آلاف . ويوسيف الذي كان مطّلعاً على امرهم اكثر من بلين لم يكن يحصر انتشارهم الجيوغرافي في نواحي البحر الميت فقط فانه يقول : « انهم ليسوا مجتمعين في مدينة واحدة لكنهم يعيشون متفرقين في مدن عديدة » لكن فيلون يقول بانهم كانوا يفضلون المحالّ القليلة السكان لكونها اجدر بالاختلاء .

من جهة اخرى يوسيف الذي وصف باعجاب حياة الاسينيين المتبتلين يعرّفنا بانهم لم يكونوا كلهم كذلك وان جزءاً منهم كان يعيش في حالة الزواج .

ان ما عندنا من الآثار يثبت هذه المعلومات . رأينا بان كتاب التهذيب عينه وهو خاصّ برهبان قمران حافظي القانون بتدقيق يذكر وجود جماعات عديدة يترأسها كهنة وعدد اعضائها عشرة على الاقل .

كتاب قوانين آخر كانوا يقرأونه في قمران ولو انه كان يختص بغير امكنة هو « اثر دمشق » هذا الكتاب — وقد يكون اقدم من « كتاب التهذيب » — يطلعنا على شيء قليل بخصوص اصول هذه المنظّمة . لا يمكن انكار وحدة العقيدة ووحدة الالهام بين قوانين كتاب دمشق وقوانين قمران لكن حياة العهد في كتاب دمشق لا تقوم بحفظ قوانين رهبانية حقيقية .

في الصفحات الاولى نشهد رواية حزب كهنة يدعون الانبا الى رئيس الكهنة صادوق معاصر سليمان ومعهم لاويون يتبعهم عدد من الملتانيين وكانوا باختلاف شديد مع رئاسات اسرائيل الروحية، لذلك تركوا ارض يهوذا ليذهبوا

ويسكنوا في ارض وثنية في بلاد الشام . لا نعرف محل سكناهم أفي حوران او في شمال ما وراء الاردن وكانوا يعيشون في محال يسوتها مراكز. في هذه الظروف كانوا يتّخذون لنفسهم نصّاً من عاموس وهو لهنة موجّهة جليّاً الى وثنيين غير عابئين بتنطق : « بل حملتم خيمة مُولككم وكيوان تمثيلكم كوكبَ آلهكم الذي صنعتموه لكم فسأجليكم الى ما وراء دمشق ».(عاموس ٥ : ٢٦ – ٢٧)

هذه المراكز كانت تذكّر محلات العبرانيين في برّية سينا فان الشعب الذي يسكن فيها هو كأجداده في ايام موسى المستأمن الوحيد للعهد القديم لان الرؤساء الروحيين الرسميّين قد اصبحوا « امّة بليعال» (برّوز ص ٤٠٥) .

كما في قمران اجتمع هؤلاء ايضاً لمعرفة الذلل ولفهم اعمال الله وطلبه بقلب صادق في هذه المحلات اعضاء العهد يعيشون جماعات في كل منها عشرة على الاقل وفيها على الاقل كاهن واحد . يرئس هذه الجماعات رئيسان كبيران احدهما كاهن « مفتّش » (مُبقد) والثاني قيّم المحلات » (مبقّر) .

قوانين الطهارة الشرعية وحفظ السبت كانت – ربما مُزايدةً نحو الآخرين – مشدّدة حتى الجنون. فهي تأمر بفصد الاسماك وهي حيّة كالحيوانات الحارّة الدم وان لا يؤخذ الجراد للشواء ولا يوضع في الماء للطبخ الا حيّاً . وكانت تحرم نقل شيء مهما صغر يوم سبت ولو كان كيس طبب معلّق بالثياب وكان محرّماً حمل الرضيع بالذراعين . كان محرّماً ايضاً اخراج حيوان سقط في بئر او صهريج ومحرّماً كذلك اخراج انسان لتخليصه اذا لم يكن انقاذه ممكناً دون استعمال حبل او سلّم .

اعضاء العهد العائشون في هذه المحلات لم يكونوا مُجبَرين على التخلّي عن اموالهم لكن فقط كانوا ملزمين بدفع ضريبة توازي اجرة يومي شغل كل شهر للصندوق العمومي .

كان الزواج مُباحاً بشرط الخضوع في حالته لقوانين اولاً لشريعة موسى وثانياً للتي تنتج من تأويل الشيعة التي هو منها فانها كانت تمنع المضادّة ولربما الطلاق ايضاً وتحرّم زواج العمّ بابنة اخيه او اخته مع ان سفر الاحبار لا يحتوي هذا التحريم .

لكن الظروف التي كانت قد أوجبت هذا الجلاء الى بلاد دمشق لم تلبث ان تغيرت، حينئذٍ تمكنت المحلات ان تقيم في يهوذا او في الجليل بينما مركز قمران الرهباني كان يتثبّت في نواحي البحر الميت وهكذا في بدء تاريخنا في زمن محدد كان قد توصل عدد الاعضاء الى اربعة آلاف وهو عدد ذو قدر ولو لم يكن كبيرًا . وكان لا بدّ من وجود محيط حول هذه الاخويات الاسينية مختلف الآراء من نافر او محبّذ .

يظهر ان هذه الروح الاسينية قد بلغت الى المهاجرين انفسهم على الاقل الى مدينة الاسكندرية حيث تعارف فيلون مع « التيرابوت » وحسب وصفه لهم نرى انهم كانوا يعيشون عيشة قريبة جدًا من قوانين قمران وفي حالة التبتل . وكان هناك ايضاً جمعية نسائية . ثم ان وجود قطع من الترجمة السبعينية في مغاور برّية يهوذا قد يكون دليلاً على علاقة بين الاسينيين و« التيرابوت » .

في كلامنا عن « آثر دمشق » ذكرنا بأننا فيه نجد معلومات عن اصل الاسينيين . نعود الآن الى المسألة لنقتبس على ما نقدر ان نجيء من تاريخهم . عندنا ايضاً كتاب آخر يعطينا شيئاً من هذا التاريخ بنوع أجلى وبحبّة . عن هذا الكتاب كتب كثيرون وهو « تأويل حبقوق » . كما حدث لمفسرين كثيرين خياليين لسفر الرؤيا حدث لهم فانهم بسهولة تصوروا وجود شرهان ومحمد وهتلر والقنبلة الذرية فيه . كذا الاسينيون كانوا قد فسروا الانبياء بموجب ماضي شيعتهم ورغباتها لكنهم لسوء الحظ تجنّبوا قصداً ذكر اسم اي شخص كان . وعلاوة على ذلك فان عباراتهم ليست دائماً دون اشتباه والخلال تزيد في الارتباك .

يطول بنا المقال اذا اردنا ان نعدّد كل التخمينات التي بُنيت على هذا الأساس وخصوصاً اذا باشرنا مباحثة مستفيضة في هذا الموضوع . نكتفي بتعيين سريع للنقاط الثابتة والحلول المحتملة .

يخبرنا يوسيف (القديميات اليهودية ١٣ : فصل ٥ و ١٧١) انه في ايام يوناثان وهو ثاني المكابيين كان يوجد بين اليهود ثلاث شيع كان لكل منها اعتقاد مختلف بخصوص الامور البشرية وهي شيعة الفريسيين وشيعة الصدوقيين والثالثة شيعة الاسينيين ». يمكننا قبول هذه المعلومات وعندنا اسباب صوابية للظن بانه

في الازمنة التي سبقت كانت هذه الشيع موجودة فقط كحالة اتجاهيـة او كتجمّعات غير منظمة .

ان اضطهاد انطيوكس الرابع ابيفانيوس سنة ١٦٧ هيّج مقاومة الشعب اليهودي ومتاتياس الكاهن — لم يكن من ذرية صادوق — وقد هذه المقاومة وترك لابنائه مهمة ادارتها . في اول هذه المقاومة وهو زمن البأس والشجاعة عاضدته كثيرًا او قليلًا جماعة من رجال متعلّقين بنوع خصوصي بالشريعة وهم « الحسيديون » (١ مكابيون ٢:٤٢) لكن هذه الجماعة لم تتعامل بعد ذلك معه كحليفة فانها اسرعت الى قبول السلم دونـه مع الملك ذيمتريوس مغرورين لوجود كاهن من نسل هارون معه «الكيم» (١ مكا ٧:١٣-١٤) ولا يظهر انهم رغمًا عن انخداعهم وبعد هذا العمل القليل الفطنة عادوا الى المكابيين واتحدوا معهم بصراحة للمقاومة .

هؤلاء الحسيديون بغيرتهم على الشريعة يسبقون نوعاً مـا الفريسيين ولا يستحيل ان يكون بعضهم قد لعب دورًا في بروز شيعة الفريسيين . لكن لم يكن الاسينيون اقلّ غيرة على المراسيم الموسوية ويمكن ان يكونوا هم ورثة الحركة الحسيديّة خصوصاً بقلة اتفاقهم مع المكابيين .

كما يصف لنـا معيشتهم كتاب دمشق نرى فيهم اولًا حزباً كهنوتيًا يتركب من عدد وافر من الكهنة واللاويـين وهو خاضع لرؤساء من نسل هارون واحـترامهم لموسى عميق لكنهم بعده يضعون في درجة ممتازة رئيس الكهنة صادوق فبرأيهم انه حتى مجيئه كانت الشريعة مهملة جدًا حتى من جهة داود لكن جهل هذا يعذره لمخالفتها بتعدّد زوجاته .

في الازمنة التابعة دخـل الشرّ من جديد وشاع « لكن الله اخرج من هارون رجالًا ذوي فهم ومن اسرائيل رجالًا حكماء » وهم رجال «العهد الجديد» في برّية دمشق وهم وحدهم الصالحون الحقيقيون .

ضد اخصامهم ولا بـد ان هؤلاء — حسب روح كتاب دمشق — هم المكابيون او خلفاؤهم السلالة الاشمونية عندهم شكوات شديدة عديدة منها :

انهم يجيزون تعدّد الزوجات ضد كلام التكوين: «خلقهما ذكرًا وانثى » ثم: « سيدخلون السفينة اثنين اثنين » .

. وانهم يأذنون بما لا يجوز مثلاً: بزواج ابنة الاخ او الاخت مع اخي الاب ثم انهم غيّروا حساب ايام السنة الخدمي .

لهذه الملاومات النظرية نظنّ انه يوجد اسباب عدم رضى احق وأهمّ عند كهنة قد يكونون من ذرية صادوق وهم الزعماء. فان السلالة الاشمونية الكهنوتية والملوكية معاً كانت حائزة على منصب رئيس الكهنة الذي كان خاصاً بذرّية صادوق منذ اجيال .

في اول الامر كانت تدفع الاسينيين اسباب متباينة وغيرة جقيقية على الشريعة وغيظ كامن كانوا يشعرون او لا يشعرون به . وجاء يوم — ربما بعد خصام مع الكهنة الرسميين — فيه اختاروا المنفى ووطّدوه باتخاذ نوع من المعيشة تحاكم ان لم يكن عن كل نفوذ فعلى الاقل عن مقدّم ملعب الحياة . لكن الحزب كان يعتقد اعتقاداً ثابتاً بانه مُستأمن عهد جديد مدعوّ الى جمع شتات اسرائيل الحقيقي لقتال جازم وانتصار المسيح المنتظر. هذا المسيح هو الذي يعتقد به الاسينيون وهو مسيح كهنوتي مسيح هارون واسرائيل ويفترق احياناً الى شخصين مسيح هارون وهو زعيم ديني ومسيح اسرائيل وهو علماني وفي الدرجة الثانية وهم في اثناء ذلك يُرعدون عبثاً ضد بقيّة الناس .

شخصان يعطي اسمها كتاب دمشق وتأويل حبقوق هما زعيما هذا الانشقاق المكدّر : « ربّ العدالة » و « الكاهن المنافق » .

لا بدّ ان « رب العدالة » كان شخصاً قوياً وقد حوّل — لخدمة مآربه حركة مرتبكة وقليلة الانتظام ناشئة الى منظمة عاملة وثابتة . كتاب دمشق يعلن بان الله ارسله « ليقود (ذويه) في طريق تكون حسب قلبه » (D D. I, Burrows, p. 339) لكنه يتكلم عن مدة العشرين سنة التي سبقت دخوله الى العمل . اذن لا يظهر بأنه هو المؤسس لكن المنظّم والزعيم . كتاب تأويل حبقوق ينسب اليه أسمى مواهب المعرفة ويقول « بانه كان كاهناً وضع الله في قلبه الحكمة ليفسر اقوال خدامه الانبياء » (حبقوق ١:٥) وان الله كان قد « اوحى اليه بكل اسرار اقوال الانبياء خدامه » (حبقوق ٢:٢) فكان اذن واجباً قبول رسالته وكبيرة كانت خطيئة اخصامه برفضها: «هم الذين تصرّفوا تصرّف خونة بالاتفاق مع رجل الكذب لانهم لم يُبالوا بكلام رب العدالة

الخارجة من فم الله » (حبقوق ١ : ٥) ثم ينتقل المؤوّل الى آية شهيرة منها بعد ذلك انتج القديس بولس نتيجة مختلفة جدًا فيكتب : « لكن البارّ سوف يحيا من ايمانه وهذا يعني كل الذين يمارسون الشريعة في آل يهوذا وسوف ينقذهم الله من الحكم عليهم من اجل محنهم وايمانهم برب العدالة » (حبقوق ٢ : ٤)

لا يمكن الشك بان تأثير هذا الشخص كان عظيماً في المذهب الاسيني كله وان اليه تعود بالاخص رسوم المحلات وعظم الوثبة الادبية التي تنتعش في عدة صفحات من الكتب التي وصلت الينا وقد جعلت ممكناً نجاح الحياة الزهدية في قمران .

ازاءه يقف « الكاهن المنافق » ولا يد انه هو « رجل الكذب». السيد ملار برّوز يقدّمه الى قرائه قائلاً :« وها الآن دخول الخائن » هوذا هذا الدخول الى المسرح بمناسبة آية « النبي » ٢ : ٦ : « الويل لمن يكدّس ما ليس له » وهذا يعني « الكاهن المنافق وقد دُعي اولاً حسب الحقيقة لكن عندما بدأ يملك في اسرائيل انتفخ قلبه كبرياء فترك الله وخان وصاياه من سبب الغنى. نهب وكدّس غنى رجال الصولة الذين كانوا يتمردون على الله واخذ غنى الشعوب جامعاً في نفسه الخطأ والجور » (برّوز ص ١٧٩) ونص آخر يظهره لنا مضطهداً لربّ العدالة ثم نراه هو ايضاً وقد سُلّم الى اعدائه وعوقب : « هذا يعني الكاهن المنافق الذي من جرّاء الشر الذي سنّيه لرب العدالة ولرجال حزبه سلّمه الله الى أيدي اعدائه ضارباً اياه بعقاب مهلك في مرارة نفسه لانه تصرف بنفاق ضد مختاره » (٢ : ٨).

و« واعظ الكذب » وقد يكون الكاهن المنافق بعينه يُعاب لانه دفع اناساً عديدين الى بناء مدينة « خداعة » . هذا صدى ملام عنيف يوجهه عدة مرار كتاب دمشق ضدّ « بنّائي اسوار الذين بنوا البور وطلوه بالملاط » (كتاب دمشق ٧ و٩).

كاهن مالكّ على اسرائيل قد اغتنى من اموال الشعوب واموال اشخاص تمرّدوا ثم ايضاً على الله ويظهر انه كان مولعاً بالبناء : هذه خطوط صورة خصم رب العدالة الكاهن المنافق مرسومة جيداً . يبدو جلياً بانه كان قد

توصل الى الإتكا. عليه وعلى ذويه لكن هو ايضاً كان قد سُلم الى اعدائه و ـ بعقاب مهلك .

« بيت ابشالوم » — اسم لُتزي — بقي مدة على حياد مجرم :« يعني هذا بيت ابشالوم ورجال حزبه الذين حفظوا السكوت ازاء عقاب رب العدالة وذويه ولم يعضدوه ضد رجل الكذب الذي نبذ الشريعة ضمن جميتهم ».

هوذا اخيراً نصّ كان موضوع تأويلين مختلفين : « هذا يعني الكاهن المنافق الذي يضطهد رب العدالة لكي يخزيه في حدّة غضبه راغباً في نفيه (في غير موضع : في ابتلاعه) . وفي وقت عيد بطالتهم يوم التكفير ظهر لهم ليخزيهم ويُوجعهم يوم الصوم سبت بطالتهم » .

دوبون سومر في محاولته لوجود مشابه بين رب العدالة ويسوع المسيح كان يرى في هذه العبارات ذكر مكيدة كادها ضد رب العدالة الكاهن المنافق توصلت الى قصد قتله والى تنفيذه . لكن رب العدالة أخذ ثأره اذ قام من الموت وظهر لاعدائه بنوع ناقم في يوم التكفير عينه وهذا الظهور ليس الا نكبة دخول يوحنا الى الهيكل .

هذا التأويل يقتضي رجوع رب العدالة الى الحياة وليس في النص ما يدل على ذلك ويقتضي ايضاً قبول وقوع ما يحدث احياناً في الانشاء عند السامين بان الكاتب يروره من جملة الى التابعة ودون ان ينتبه الى ذلك بنوع جليّ غير الفاعل :« ... الكاهن المنافق الذي يضطهد ... ظهر لهم ليخزيهم ... » (فانه يعطي للفاعل « ظهر » غير فاعل « اضطهد »).

انه لصوابيّ اكثر عدم تطلّب تغيير الفاعل هذا وبهذا النوع عندنا تأويل عرضه م. س. تلمون ونشره في « بيبلكا » (Biblica) سنة ١٩٥١ وهو مقبول اليوم عموماً : الذي ظهر هو الكاهن المنافق وذلك حيث كان حينئذٍ مركز الاسينيين الاهمّ وفي يوم اجتماعهم لعيد التكفير بحسب حسابهم وظهر لهم «ليُوجعهم » بدعوته اياهم الى ترك ممارساتهم الخصوصية . بوجب هذا التأويل تكون هذه مسألة تفتيش قام به رئيس الكهنة بذاته او باسمه عند اناس رآه مناسباً . هذا ما فعله فيما بعد سلطات اورشليم اذ ارسلوا الى شواطئ الاردن من فوّضوا اليهم ان يستفسروا عن اعمال المعمدان .

من هذه المعلومات ماذا نقدر ان نستنتج من امر جليّ او محتمل ؟

احتمل رب العدالة وذووه ما احتملوه من قبل الكاهن المنافق وهو اذ ذاك رئيس الكهنة رئيس ديانة اورشليم الرسمية وقد يكون سبب ذلك ما أبدوه من التعصب ولربما كان اضطرارهم للجلاء الى دمشق الشيء الاهمّ في اضطهادهم .

عندما كُتب « اثر دمشق » كان رب العدالة قد مات « كان قد جمع » (يروز ص ٤٠٨) ويظهر ان موته كان طبيعياً . نحو اربعين سنة فيما بعد على الاكثر كان مُفتَرَضاً ان يحدث « ابادة رجال الحرب الذين اتبعوا رجل الكذب » : انتصار بالمسيح .

من يكون رب العدالة هذا . الى اليوم لم يعرض احد في ذلك رأياً يستحق القبول . من المحتمل جداً ان اسمه — وقد اهمل مشايعوه ذكره — ليس اسم شخص مذكور في الكتاب المقدس ولا في الكتب المحرّفة ولا في كتب يوسيف او في غيره مما وصل الينا . لقد بالغ المتحزّبون له في تعظيمه ولربما لم يكن له عند بقية اسرائيل الا مقام قليل الاهمية .

اما خصمه الكاهن المنافق فتحديد شخصيته اقلّ صعوبة كما يظهر ذلك من النصوص التي اتينا بها اعلاه . ليس لنا ان نفتش الا بين رؤساء كهنة اسرائيل الذين مارسوا ايضاً السلطة الملكية وهم السلالة الاشمونية التي بدأت بتتابع المكابيين الشهير . عندنا اسمان يارزان : الاسكندر جانه وهو مشهود بقساوته (٧٦ — ١٠٣) وقبله بكثير المكابيّ الثاني يوناثان (١٤٢—١٦٠) ان سفر المكابيين يعرض لاعجابنا شخص يوناثان . اما الاسينيون فكانوا متمسكين بتبادئهم متعلقين بنسل صادوق الكهنوتي لذلك يمكن ان حكمهم فيه كان مخالفاً لحكم سفر المكابيين . هذا رأي الاب ج. فرماس من آباء صيون وقد دافع عنه م. ميليك . وما يحمل الاكثر على قبوله انه الوحيد الذي يطابق ما نعرفه من صفات الكاهن المنافق حسبما يكلمنا عنها « تأويل حبقوق » اي : ابتداء لا يؤاخذ عليه ثم اغتناء لاموه عليه لوماً شديداً لكنه فقط من اموال الامم والذين تمرّدوا بشدّة على الله ثم اخيراً بناء اسوار ثم أسر وموت فاجع .

لن نعرف ابداً من يُعنى «ببيت ابشالوم». وهو لا يُذكر الا بكلام وجيز.

من وراء هذا المشهد ودون علاقات متينة مع حوادث الشيعة يظهر عدو خارجيّ عابد أعلامه الحربيّة ذو بأس عظيم وطاغية « الكِتّيم » وهم بالاحرى الرومانيون لا السلوقيون .

الحميّة التي جعلت ممكنة حياة المحلات الصعبة والجذاب المشايعين الى دير قمران تستند ولا بد على اعتقادهم الوطيد بانهم هم وحدهم « بالعهد الجديد » في « برّية دمشق » الصادقون الاصفياء. ورجاؤهم العظيم المنتظر تتميمه قريباً وهو انتصار العدل عند مجيء المسيحين ولا بد ان بغضهم للفاتح الروماني — ولم يكن اقل شدّة من بغض بقية اليهود — كان يلمج غيرتهم .

لا نقدر ان نعرف بصراحة ماذا كان مقامهم في اسرائيل . نعرف انه كان لهم حظوة عند هيرودس العظيم وانهم اذ ذاك هجروا قمران مدة من الزمان . يمكن ان دسائس الكاهن المنافق ضد ربّ العدالة كانت بالخصوص رفض يوناتان او احد خلفائه قبول رسالة مُلهَم الشيعة الكبير — وهذا الرفض يظهر صوابياً — واعادة رتبة رئيس الكهنة لواحد من نسل صادوق. فالكهنة واللاويون الاسينيون كانوا مُبعدين من خدمة الهيكل لرفضهم الاختلاط بسائر الكهنة لهذا السبب ما كانت جماعتهم تشترك الا نادراً في الشعائر الدينية الرسمية . لكن ليس ما يُثبت انهم كانوا عادةً وفعلاً مضطهدين من قبل سلطات اورشليم الدينية ولا مُحتسبين كمُشاقّين مرذولين مثل السامريين ثم ان حياتهم المعتزلة ما كانت لتجتذب جزءاً مهماً من الشعب فكانوا غير مؤذين وكان تأثيرهم ضيقاً . ثم ألم يكن الناس امام الغرباء فخورين لاسرائيل كله من فضائل حياتهم ومن تبتّلهم الارادي العجيب .

يبدو لي ان اقابلهم — عن بُعد وفي بعض الاوجه فقط — بشيع كانت موجودة في الكنائس الصقلية من « المؤمنين — القدماء » (الراسكولنك) . هنا كما هناك نرى اختلاط عناصر ممكن تفسير تركيبها نفسياً : قلة ذكاء و « misonéisme » منتصبان ضد تغيرات جاءت بوقتها او على الاقل مقبولة ثم ادّعاء بالوحي متباين يؤول الى ممارسات غريبة حتى الى عقائد ضالّة مع همّة في العبادة احياناً جديرة بالاعجاب .

اما الشكوى الموجهة الى زعماء الدين في اورشليم بانهم مذنبون باتخاذهم حساباً جديداً لايام السنة وبانهم لم يحرّموا تكاثر الزوجات ولا بعض الاقترانات الزواجية ولو انها ليست محرّمة في نصوص الشريعة فكل هذا يظهر لنا الاسينيّين كأناس متعصّبين على شبه الراسكولنك بخصوص حركات في الخدم الدينية او لفظ اسم يسوع . مثل هؤلاء الراسكولنك او بعضهم على الاقل كانوا يشدّدون في المشاكل الضميرية بخصوص المآكل والتطهير وحفظ يوم السبت وهذا يدلّ على نفسيّة ناقصة الذكاء .

لكن عند هؤلاء المتحمّسين مواقف فاخرة بها يظهرون متفوّقين على منافسيهم الصدوقيين والفريسيين الاكثر نشاطاً وحظاً .

ليس عندنا عن الصدوقيين معلومات تامة وما نعرفه عنهم ليس مما يرفع شأنهم . من الكتاب المقدس لا يعترفون الا بالتوراة وبما انهم يتمسّون ماضياً ليس عنهم بعيداً يرفضون قبول كل ما جهلته التقاليد القديمة وبالاخص قيامة الموتى والمجازاة في الحياة الاخرى . هذا الانكار الصريح كان يصلّب ما لم يكن في ايام داود الا جهلاً جسّياً بخصوص ما بعد الحياة لا يرفض امكان امر ما لم يَرَ بعدُ النظام الإلهي ان يوحي به . هذا الضلال الجوهري فيما يخصّ مصير الانسان بعد الموت هو الذي يحملنا على اعتبار عقيدة الصدوقيين ومبادئهم العملية ناقصة ماديّة . سفر يشوع بن سيراخ الذي كان يميل الى هذا الاتجاه يُظهر لنا بانه لم يكن مخالفاً لإحساس ديني عميق وبالحقيقة دون عظيم همّة . لكننا نعرف بان الصدوقيين كانوا متشدّدين في حفظ الشريعة وتأويلها . كانت قوّتهم بالعائلات الكهنوتية الكبيرة التي منها كان عظيم الكهنة في عهد المسيح . يكلّمنا الانجيل بأسطر قليلة عن الصدوقيين لا لمدحهم . لكنّ تآليف اليهود التابعة تبالغ في ذمّهم تعصّباً .

نعرف الفريسيّين معرفة أوفى . هم اولاً علمانيون وهم غيورون على معرفة الشريعة وحفظها ورغماً عن احتقارهم لغيرهم من الاسرائيليين كان لهم هيبة ونفوذ اعظم . ان حزبهم وحده بقي حياً بعد نكبة سنة السبعين وسنة ١٣٥ بينما اضمحل حزب الصدوقيّين بعد انقطاع الخدم الدينية في الهيكل وحزب

الاسينيين لم يبقَ له اثر. ثم خلف الربانيُّ الكاهنَ والحزبُ الفريسي صار واحداً مع الشعب الاسرائيلي عينه .

كان موقف البدعة الفريسيَّة شديداً ضد الصدوقيين وكانت متمسكة بعقيدة المجازاة في الحياة السيدة ومن ثم بقيامة الاجساد . ومجموعتها للكتب المقدسة هي التي تثبّتت في الكتاب المقدس « المأثور » . لكن على مثال عزرا الذي تلمذت له كان اهتمامها محصوراً في الشريعة في موسى وقد عُنيت بنوع خصوصيّ بحل المشاكل العملية الذمية . غاية الفريسيين في قراءتهم الانبياء والاسفار الحكمية هي خصوصاً ان يجدوا فيها ما يساعدهم على تأويل موسى. هذا ما انتج فيها هزالاً دينيًّا مؤسفاً اذ جعلت اليهودي بيلاجيًّا قبل ان يكون البيلاجيون عندنا مثالاً من الفريسيين في الانجيل : انه يقف مفتخراً بصلاحه ناسياً ما هي بالحقيقة مرتبته ازاء خالقه .

اما الاسينيون الذين تعرّفنا اليهم — وهم خصوصاً حزب كهنوتي — مع انهم كانوا — ربما لمزايدتهم للفريسيين — اكثر تعصباً منهم للتدقيق في حفظ الشريعة. زاهم يقرأون باهتمام اعظم كتب الانبياء . يشهد بذلك الدرج الاول مما ورثناه منهم. انه كان سفر اشعيا . وفي البرية تبعوا موسى لكنهم معه وجدوا ايضاً من جديد ايليا واليشاع وابناء الانبياء المحيطين بهم . بهذا الفكر اتخذوا لهم شعاراً وضعوه في الصفحة الاولى من كتابي قوانينهم بهذه العبارة: « طَلَبُ الله ». لكن في هذا الطلب كان تُعيق مشيهم عوائق عديدة لم يكن ليتغلّب عليها الا الانجيل . كانت الشريعة لهم استاذاً قاسياً مخيفاً لا يعرفون كيف التخلّص منه. وما هو أتعس انهم مع محبة الله ومحبة القريب (والقريب ليس الا الاخوة بالعهد) كانوا يتعلمون بغضاً شديداً لابناء الظلام لا فقط لاخطائهم وأضاليلهم لكن ايضاً لهم شخصيًّا .

زهد قمران لا يخلو من النقص لكنه مع ذلك امر عظيم لما كان يتطلبه من الخضوع للرؤساء والمحبة الاخوية والثبات في الصلاة والشغل دون غرض شخصي .

الارشادات العتيدة والاناشيد تشهد لهم بسلوك سام جداً وبحياة داخلية حقيقيّة . هوذا مثلاً جزء من نشيد ينتهي به كتاب التهذيب :

يجب ان لا يُعجب الانسان الا بارادة الله .
وان يفرح لكل كلام يخرج من فمه .
وان لا يشتهي الا ما امر به الله .
لكن ان يتأمل دائمًا بشرائعه .
في كل ساعة تُقبل فليبارك خالقه .
في اية حال وُجد فليبارك عدالته .
عندما ابدأ بتقديم رجلي ويديّ
اباركك اسمه .
عندما ابدأ بالخروج او الدخول .
عندما اجلس او اقوم .
وعندما اكون مُستلقيًا على مضجعي أعظّمه .
اباركه بتقدمة شفتيّ .
اكثر مما بالذبائح التي يقدّمها البشر .
لن اردّ لاحد جزاء الشرّ .
سألاحق كل انسان بالخير .
فلله الحق بمحاكمة كل انسان حيّ .

لا ينقصه الاعتراف الوضيع بضعف الانسان وبالخطيئة وبالرجاء في عدل الله لنيل الشفاء منها :

لكني من عدد البشرية الخاطئة .
من جماعة الضلال الجسدي .
مآثمي وهفواتي وخطيئتي .
كذلك إثم قلبي المجرم .
تختص بالدود وبالذين يمشون في الظلمات .
اما انا فاذا ارتجيت
فحب الله الذي لا يتزعزع يكون خلاصي الى الابد .
واذا ترجرجت في خطيئة الجسد .
فمحاكمتي تكون الى الابد في عدل الله .

اذا ترك التوجع يذوب فيّ .
سوف يُنقذ نفسي من الهوّة .
وسوف يقود خُطاي في الطريق المقدسة .
برحمته قرّبني اليه .
وبعدالته سوف يطهّرني من الدنس البشري .
من خطايا ابناء الانسان .
كن مبارَكاً يا الهي .
انت الذي فتحت للمعرفة قلب عبدك .
الا تُقد اعماله كلها الى الصلاح .

الاسينيون كالفريسيين ينتظرون جزاء في الحياة الاخرى لكنهم لا يلحّون في الكلام عن عقيدة قيامة الاجساد الحاح الفريسيين . تعريفهم للانسان يقيم بين النفس والجسد ثنوية صريحة لذلك يمكن انهم فكّروا بان السعادة هي للنفس وحدها بصحبة الملائكة . من جهة اخرى يظهر أن رجاءهم بازمنة المسيح جعلهم ينتظرون الى سعادة يصلون اليها دون المرور بالموت .

انه لتعمّد من قبل يوسيف ادّعاؤه بانهم يوجهون صلاتهم الصباح الى الشمس فمن الاكيد انهم يوجّهونها الى الإله الحقيقي . ثم ان استفادة كتاب التهذيب من موضوع الطريقَين لا تحتوي الا ما كان مطابقاً بالتمام لعقيدة التوحيد حتى اذا فرضنا فيه (وهذا ليس مُثبتاً) وجود تذكار للثنوية الايرانية .

عقيدتهم بخصوص العناية الإلهية تقرّر بالاختيار من الازل وبتحديد مستقبل الانسان لكننا لا نرى فيها انكاراً للحرية البشرية . علاوة على ذلك كانوا يعتقدون بالتنجيم فينسبون الى النجوم تأثيراً باتاً في حظوظ البشر .

حسابهم لايام السنة مثل حساب كتاب اليوبيل وحساب جزء من كتاب اخنوخ لم يكن الحساب القمري الرسمي في اورشليم في ايام المسيح مع اسماء الاشهر التي حفظتها اللغة العربية العصرية : نيسان وحزيران وتموز والبقية . فكان اذن حسابهم شمسياً (وقد يكون من اصله مصرياً) يتركب من اثني عشر شهراً ومن اثنين وخمسين اسبوعاً وعدد ايامه ٣٦٤ . في حسابهم — كما يبدون ان يجعلوه في عصرنا — يوم لشهر وايام الاسبوع متقابلة بنوع لا

يتغيّر . مثلاً اول يوم من السنة واول يوم من كل ثلاثة اشهر يقع دائماً في يوم الاربعا. ثم الاعياد مثلاً عيد الفصح وعيد التكفير كانت تقع دائما في تاريخ محدّد . اننا لا نعرف كيف كانوا ينظمون توافق هذه السنة مع تقدّم الفصول الحقيقي فانه كان ينقصها يوم .

هكذا عاش الاسينيون بجانب المجتمع على حدة متكلفين ممارسات مجاوزة الحدّ وهم متيقّنون ولا شك بانه لا تعوزهم معرفة . لكنهم أهلٌ للاعجاب بتجرّدهم وتزهدهم وجهودهم في طلب الله .

في سنة ٦٨ بعد ان وضع الاسينيون مخطوطاتهم حسب امكانهم في محل أمين . وبينما كان كثيرون منهم حسبما نظن يحاربون او قتلوا في صفوف المقاومين حينئذٍ ظهر الجنود الرومانيون جنود الجوقة الفريتنسية (X^a Legio Fretensis). ومدّةً من الزمان وضعوا في الخرائب مراكز مراقبة . بعد ذلك جاء دور مشايعي برخوشبا ثم من بعد ذلك والى اليوم خيم فيها بدويون . هذه كانت نهاية الحياة النسكيّة اليهودية الحارة بعبادتها الفريدة بنوعها التي كانت قد أنعشت قمران مدة اكثر من قرن .

يظهر انه بهذا الخراب انتهت كل حياة اسينيّة منظمة لا فقط في قمران لكن ايضاً خارجاً عنها . لا بد ان ما سبّبه الموت والاستعباد من نقصان في عدد الاسينيين القليل كان كافياً للاشاة الشيعة بسرعة دون ان يبقى لها بعد ذلك بقا. بتأثيرها في منظمات دينيّة اخرى وخصوصاً في الديانة المسيحية .

آثار قمران والديانة المسيحية

منذ الجيل الثامن عشر خطر على بال بعض الباحثين ان ينسبوا اصل الانجيل الى مصادر اسينيّة . فريدريك الثاني — ولم يكن له من الجدارة في هذا الموضوع الاشي. زهيد — كتب الى دالمبر ما يلي: «كان يسوع يحصر المعنى اسينياً. كان مُتشرّباً من تعاليم الاسينيين الادبية وهي تعاليم أخذت كثيراً من زينون». هذا رأي ساذج ارتأى به رغماً عن قلة ما كان معروفاً بخصوص الاسينيين او لسبب ذلك متطفّلون في تفسير الكتاب المقدس وتاريخ الاديان .

اكتشافات قمران فتحت باباً هنا او هناك لتصريحات قليلة التوفيق في

نشرات كبيرة ومجلات وغير تآليف مخصّصة لجميع القراء . ويحدث في هذا النوع من الكتابات بان لا يبالي الكاتب كفاية بالتدقيق . .

ولو ان هذه التصريحات لا طائل تحتها وليست اهلًا بان نقف عندها فالامر لا يُنكر بان آثار قمران قد أتتنا بما يقدر ان يساعدنا على فهم احسن لكتب العهد الجديد واصول الديانة المسيحية . درس النصوص الاصلية والمسيحية ومقابلتها ولو انه الى الآن متردّد هو غزير الوعود. كما هو غزير بالنتائج المكتسبة . ومما لا شكّ فيه ان امكان درس كهذا هو اهمّ الفوائد التي أتتنا بها اكتشاف قمران .

لنقُل حالًا بان لهذا البحث صعوباته الخصوصية فيلزم اذن الدخول فيه باسلوب دون الانحراف الى جاذبيّة مقابلات بارعة لكن دون اثبات مكين او الى اقامة ابنية مموّهة على الماهي مُريب .

من مشابهة بين مثل بودّي وقول من الانجيل اي مفكّر رزين يحكم بان احدهما ايًّا كان قد أخذ عن الآخر عوضًا عن الاكتفاء بالحكم بان هنالك اتفاقًا عرضيًّا . في تاريخ الاديان حتى في استعمال ما يُسمّى الاسلوب التشبيهي لا يجوز اعتبار ادلّة بسيطة كبرهان تحقيقي فان ذلك لا تقبله محكمة ولا يرضى به نظام مباحث آخر .

نرى اذن انه يجب كلما حدث وجود مصادفة لفظية بين احد آثار قمران ونصّ من العهد الجديد ان نتحاشى تجاوز ما تعنيه فانها ليست الا دلالة مفيدة ولكنها ضعيفة على احتمال وجود استعارة او تأثير فلا يجوز اذن اعلان الشيء حالًا كأنه امر واضح لا يُردّ ولا يُعترض عليه .

يجب ايضًا التحذّر من الميل الى عدّ المسألة سهلة واعتبار اسينيًّا جوهريًّا تعبيراً او عادة او اتجاهًا دينيًّا ما لا نعرفه الا من كتابات قمران وحدها .

هنا نرى ما هي فعلًا قيمة الاكتشافات الحديثة واهميتها فانها وحدها تعطينا نصوصًا مكتوبة في فلسطين في زمان الانجيل عينه وتعطينا هكذا شيئًا مما كان الناس يقولون ويفكرون ويحيون بموجبه وهذا دون ان نقدر اكثر الاحيان البتّ فيما اذا كان ذلك شيئًا خاصًّا « بالعهد الجديد » .

والفائدة تبقى عظيمة فيما يخصّ تفسيراً لكتب العهد الجديد . الى الآن

كان ينقصنا الادلة نقصاً تاماً. نعم ان فيلون كان مُعاصراً للمسيح لكنه شاهد من يهود الاسكندرية متكلمي اللغة اليونانية وعلاوة على ذلك انه كاتب ذاتيّ للغاية اما يوسيف فانه يكتب لقارئيه الوثنيين فيشوّه كل ما يمسّه واحياناً كثيرة بنوع مكروه. وهكذا ما كان لنا لايضاح كتب العهد الجديد وسائط الا التآليف اليهودية المتأخرة اي المشنا والتلمود والمدراشيم ومعلوم ان هذه الادلة هي مُخيّبة فانها كُتبت بعد سنة السبعين حيث كان خراب الهيكل بسنين عديدة ولم تكن اذ ذاك الا ذكريات عن الخدم الدينية البائدة. الحزب الصدوقي اضمحلّ حالاً بعد خراب الهيكل والحزب الاسيني أهمل. اما الكتبة ورثة التقليد الفريسي وحده فنسوا او تناسوا كل ما في الماضي الا هذا التقليد علاوة على ذلك انهم بعقليتهم الفقهية كانوا أكثر اهتماماً بتدوين ما كان يجب ان يكون مما كان فعلاً. وهذا ما أمكن المفسرين المتقادمين الى قبول ما كتبوه عند كلامهم عن العشاء السرّي من وصف رتب العشاء الفصحي اليهودي بتدقيق حتى انهم ذكروا لون «الشاروست» الشهيرة ثم في كلامهم عن نكران بطرس الرسول بحثوا عن شرعية وجود الديك الصائح في أورشليم احسن من هذا: كان في امكاننا ان نكتفي ما نعرفه عن شخصيّة الفريسي ونؤكد صحة التعدّيات التي اعلنها المسيح واهميّتها (الحلفانات الباطلة والتدقيقات المفرطة بخصوص حفظ السبت وحلّ المشاكل الذمّيّة بنوع غير عقلي وبقلة استقامة). لكن في كل مجموعة النصوص التي يعطيها بلّيربك عبثاً نفتّش عما يدلّنا على ما جعل كرازة المسيح تجد نفوساً مستعدة للاصغاء اليها نفوساً تهتزّ بمدّ لوحي الانبياء. ولم تهزّ لها مشروعية قانطة.

الاسينيون بما تركوا لنا من آثار كتابية يزيلون جزئيًّا هذا النقصان ويحملوننا نفكّر بوجود تديّن مختلف جدًّا من التديّن التلمودي عند «اسرائيليّ فانا او بيت صيدا الحقيقيّ» فانهم ازاء رسوم الكمال المسيحي المقبل الموجودة متفرقة في كتب العهد القديم وموعظة المسيح على الجبل او رسالة القديس بولس الى الرومانيين هم ورثوا وحدهم همّوا بممارسة تعاليمها السامية او على الاقل كانوا شهوداً لما عاينوه من حفظها والتعمّق فيها.

كان الانبياء قد استنكروا زهو الاغنياء. فبدأوا هكذا بتعظيم الفقير

المظلوم . في المزامير صدى صوت الانبياء يمجد « الابيون » اي الفقير فـالله هو ثروته الوحيدة . اننا لا نجد شيئاً بهذا المعنى عنـد ابن سيراخ وهو الصدّوقيّ السابق بينما نرى في الاناجيـل « الفريسيين وكانوا محبين للمال » يهزأون بالمسيح لانه اعلن « لا تقدرون ان تخدموا الله والمال » .

(لوقا ١٦ : ١٤-١٣)

اما يسوع فكان يقدر ان يعلن : « طوبى للفقراء » وكان الجمع يفهمه وكان هو يقدر ان يدعو يعقوب ويوحنا لترك شباكهم ومتى لترك مائدة الجباية وكانوا يطيعونه والى الشاب الغني يوجه هذه الدعوة : « ان كنت تريد ان تكون كاملاً اذهب وبع كل شيء لك وأعطه للمساكين فيكون لك كنز في السماء وتعالَ اتبعني » . (متى ١٩ : ٢١)

ولم يكن للشاب هذه الشجاعة لكنه كان قد فهم (غيره بعـده بثلاثة اجيال سمع هذه الدعوة : انطوان) . اذن لغير الفريسيين المستهزئين كان معنى لمدح الفقر حتى وللدعوة الى ترك كل شيء لخدمة الله وقد فُهم هذا المعنى بنوع اخصّ في قمران وفي محالّ اخر حيث كان الاسينيون مجتمعين على الاقـل عشرة اعضاء معاً .

وبنوع طبيعيّ كان الزهد قد قاد زاهد قمران الى التبتـل الاختياري ولا بد انه مخّص فيه معنى البتولية . لم تكن الازمنة اذ ذاك ازمنة الآباء الاقدمين والملك داود . كان للعهد القديم من هذا النوع سابقٌ عظيم ارميـا الذي صار ضحية لرسالته النبويّة .

(ارميا ١٦ : ١)

يعظّم كتاب يهوديث ممارستها للبتولية في ترمّلها وقد اقتدت بها حنّة النبية .

(لوقا ٢ : ٣٦)

اسراع الكنيسة في القرون الاولى الى تكريم البتولية الا يدلّ على سوابق اخرى . انها كانت عند الاسينيين في قمران ولا شك في غيرها ايضاً من الاماكن . سرّ زواج يوسف ومريم هو من طبعه امر مُبهم لكن صعوبة فهمه هي اعظم لمن لا يرى شعب الله الا خلال ما يعرفه من قصص سفر التكوين والقوانين الزيجية (طالع : ريني لورانتان) :

(Structure et Théologie de Luc I-II, Note annexe. 2 pp. 176-188)

ان بولس الرسول في رسالته الى اهل غلاطية ورسالته الى اهل رومية اضطرّ الى دحض البلاجيّة قبل ان تكون وهي بلاجية مشدّدة عند اليهود وعند اليهود - المسيحيين سنّي الإهتداء. فانهم كانوا فخورين باعمالهم متيقّنين بانهم يصلون بواسطتها الى الصلاح. هذه الافكار الساذجة بخصوص علائق الانسان بالله وهي افكار فرّيسيّ الانجيل فان التعاليم اليهودية التي نجدها في التلمود خاطرت بالنفوذ الى الكنيسة.

قبل ذلك وعن بعد، نصوص من كتب الانبياء كانت قد عارضت هذه البلاجيّة واضعةً في الله مصدر صلاح الانسان (اشيا ٤٨: ٢٥) «يهوى يتبرّر كل ذرية اسرائيل» (اشيا ٤٥: ١٧) «هذا ميراث عبيد يهوى وبرّهم مني يقول يهوى» — (ارميا ٣١: ٣٣) «اجعل شريعتي في ضمائرهم وعلى قلوبهم اكتبها — (وحزقيال ١١: ١٩) «واعطيهم قلباً واحداً واجعل في احشائهم روحاً جديداً وانزع من لحمهم قلب الحجر واعطيهم قلباً من لحم لكي يسلكوا في رسومي ويحفظوا احكامي ويعملوا بها.»

بين مبادئ لاهوت النعمة هذه وتعاليم القديس بولس ما كنا لاحظنا الى الآن بالحقيقة لا اتصالاً ولا نصباً متوسّطاً لذلك يأخذنا العجب عندما نصغي في قران الى نشيد الخاطيّ المغتفر:

وقلتُ: من سبب خيانتي طُردتُ من عهدك.
لكنني تذكرتُ قوة ذراعك وغزارة رحمتك.
فتأدبتُ وقمتُ.
فتثبتت روحي إزاء التماسة.
لاني اعتمدت على جودتك وعلى غزارة رحمتك.
نعم انك تسامح في الاثم.
وبعدلك تطهر الانسان من الخطيئة (النشيد الرابع)

ألا يعطي هذا النشيد صوتاً لسلوك الخاطئة الصامت (الخاطئة التي يتكلم عنها انجيل لوقا) أو ليس ايضاً تظليماً لصراخ العشار الذي جعله الله اكثر براءة من الفرّيسي المدّعي بالبراءة.

الانسان في كل اعماله هو بين يدي الله وبحاجة الى عونه ليصل الى البراءة:

كن مباركاً إلهي انت الذي تفتح للعلم قلبَ عبدك .
وطّد كل اعماله في البرارة .
وامنح لابن عبدتك .
ان يقف الى الابد امامك .
لان الطريق ليست كاملة دونك .
ودون رضاك لا شيء يكون .

(النشيد الاخير من كتاب التهذيب – قمران ص ١٥٧)

اما انا فاعلم بان البرارة ليست للانسان .
ولا للانسان كمال الطريق .

(النشيد الرابع – في الكتاب عينه ص ١٩١)

بعيدٌ بعد هو تعليم يولس الوطيد لكنّ عبارات كهذه تشير الى قرب مجيئه. يعرف الاسيني بانه ليس صنع اعماله وأنّ عليه ان ينتظر من العدل الالهي التطهير والغفران والمقدرة على العمل الصالح .

هذه هي على ما تبين لي الاعمال الثلاثة الكبرى او السياق والذي دخلته الذي اندمجت فيه الإسينيّة لاعداد النفوس للانجيل : معنى الفقر والزهد واعتبار التبتّل الاختياري والتأكد بان الانسان هو في كل شيء خاضع لله ومحتاج الى عونه ليكون بارًّا .

من مطالعة كتاب التهذيب وتاريخ يوسيف يأخذنا العجب لرؤية الديانة اليهودية قد توصلت الى تأسيس حياة رهبانية حقيقية من النوع النسكيّ وهو فيما يختص بتقسيم الاعمال اليومية قريب جدًّا من حياة الترابيست . هل يمكن وجود مقابلات اكثر غرابة . والحال يظهر جليًّا بان هذا التشابه ليس الا توافق عملين مستقلين الواحد من الآخر لم يعرف كتاب التهذيب لا القديس باكوم ولا القديس باسيليوس ولا القديس مبارك ولا القديس برنردوس ولا الاب دي رانسي والامر اكيد بانهم لم يستوحوا يوسيف في عملهم .

لكن الاسينية ولو انها بخير ما فيها قد أعدّت الطريق للانجيل لم تكن قابلة للاتجاه اليه ولا بد انها أوقفت بعيدًا عن المسيح كثيرين من تباعها المتمسكين بها .

في هذا التمسك بالاسينية كما في كل التقاليد الشريفة رؤى ما يستحق الاعتبار وفي بقاء هؤلاء الاسينيين أوفياء لاسم صادوق الكاهن الاعظم. لكن هذا منعهم من الذهاب الى الامام فان الزمان كان قريباً فيه يسمح الله بانتهاء ذبائح الهيكل وبالتخلي عن كهنوت هارون.

ربّ العدل لم يعرف كالمسيح بعده ان يضع كمال الاعمال في النيّة التي تحييها فأفضى لذلك كالفريسيين الى طلب اهمّ ما في الصلاح من الاكثار في المراسيم الدينية والتدقق فيها ولو خالفت المحبة الاخوية والعقل السليم ومن هذا نتجت المزايدة ومعها التعصب البليد البغيض لنتائج شريعة السبت حتى والموت عينه اذا سقط انسان في البئر يوم السبت ولم يكن بالامكان انقاذه الا بواسطة سلم او حبل. من ذلك ايضاً الاكثار من الاستحمام التام والوصايا المختصّة بالطباخة. عندما كان المسيح يذمّ الفريسيين في امور كهذه كان يُلمح ايضاً الى ممارسات الاسينيين دون ان يذكر اسمهم.

كان الاسينيون اكثر بعداً من روح المسيح بعضهم — وكانوا يعتبرونه عملاً دينياً — لا فقط للشرّ لكن ايضاً للخاطئ نفسه «ابن الظلمات» و«رجل بليعال» اذا كان من «الختم عبّاد راياتهم او من الفريسيين او من كهنة اورشليم او من جاحدي عهدهم. اما يسوع فيضع في محبة الاعداء اقتداء من الدرجة الاسمى بكمال الآب السماوي.

هذا الشعور وقد شدّدته عقيدة تحديد المختارين السابق كان يحمل الاسيني على الاهتمام بذاته وبجهده لا غير دون مباشرة عمل لهداية بقيّة اسرائيل والوثنيين الى الكمال الذي يتوخّاه. اما المسيح فقبل أن يرسل تلاميذه الى الشعوب لدعوتها ابتدأ هذه الرسالة هو نفسه بالعجائب التي صنعها لقائد المئة وللمرأة الكنعانية وبزيارة السامريين.

ان انتظار الاسينيين للمسيح المقبل كان هو ايضاً لا عوناً لكن عائقاً للانجيل. بالحقيقة لقد اعلن رب العدالة بقرب اتمام اقوال الانبياء. ويوم الديونة وهذا الاعلان يذكره الاب المحترم دانييلو بحيّة واعجاب بهذا الشخص كأنه هو ايضاً نبيّ حقيقي أقامه الله ليبدأ رسالة يوحنا السابق. لكن ايّ مسيح كان ينتظر الاسينيون. «قانون الحرب» يبيّنه بقتال ليس فقط روحياً فانه يظهر

في نور ضئيل مسيح هارون ومسيح اسرائيل ولا نعلم هل هما اثنان او مسيح واحد ونجهل المهمة التي من اجلها أرسلا . لم يكن للروح القدس شركة في النبوءات وهي قريبة جدًا مما ينتظره الشعب من مسيح هو بالاحرى رئيس زمرة مهمّته طردُ الرومانيّين . (يوحنا ٦ : ١٥)

في التآليف التي ظهرت الى اليوم بخصوص قمران لم نرَ من حاول مقابلة بين الاسينيّة والانجيل كما فعلنا نحن هنا باختصار . هذا بالخصوص في كتاب صغير للاب دانييلو : « مخطوطات البحر الميّت واصول الديانة المسيحية » .

(باريس : مطبوعات الاورانت ١٩٥٧)

قد لفت انتباه المؤلفين موافقة عوائد او تعاليم او عبارات بين حياة كنيسة العصور الاولى وحياة الاسينيّين وبين كتب العهد الجديد ومخطوطات المغاور .

ان كتاب الاب دانييلو — والمؤلف شهير وحاذق — يحتوي دون شك على كثير مما تقدم من هذا النوع مع ملاحظات جليّة بخصوص الاختلافات بين الانجيل والاسينيّة لكن لعلّ مهاودته لكل ما هو جيّد خارجاً عن الديانة المسيحيّة حملته على الافراط بالاعجاب ببعض ابطاله وخصوصاً برب العدالة . فهل أتبع اسلوباً هل وجد وقتاً عن مهامه العديدة وقتاً كافياً للتفكر فيتمكّن من تحقيق قيمة المقاييس التي اخذها من غيره او وجدها هو نفسه . للاكتفاء بمثل واحد نسأل هل يوجد حقًا مقابلة ممكنة بين ما يعنيه قولُ المسيح : « الذي يغمس يده معي في الصفحة هو يسلّمني » والنظام المفروض في قمران بان للكاهن الحقّ بان يضع الاول يده على الخبز . والقديس بولس لم يكن له حقّ باستعمال آية حبقوق الشهيرة « البارّ يحيا بالايمان » دون ان يُتهم باتّباع اثر الاسينيّين او بمجادلة « تأويلهم » ولربما انه لم يقرأه ابدًا .

نعتذر لعدم التوقف طويلًا إزاء هذه المقابلات التي تدّعي بالتدقيق وقد تكون لكثرتها طويلة مُملّة . لنا الامل بان تقدّم البحوث سوف يتوصل بعد نص قصير او طويل الى تمييز ما يمكن حفظه من هذه المقابلات وما يتمّ الاتفاق على اعتباره جديرًا بالاهمال .

اول سؤال تفرضه كل مقابلة دقيقة بين قمران والانجيل له اسم يوحنا المعمدان . قد أثبتنا اعلاه وجوب تأويل رزين متأنٍّ ومع ذلك لا يمكن انكار

وجود علاقات متينة على الاقل بين يوحنا المعمدان والاسينيين . الجيل لوقا يعلمنا بان يوحنا كان منذ صغره في برّية يهوذا : «وكان الصبيّ ينمو وكان في البراري الى يوم ظهوره لاسرائيل» (لوقا ١ : ٨٠) . حسب ملاحظة الاب دانيلو «لا نرى كيف يكون هذا الصبيّ مرميًّا في البراري» (ص ١٨ من الكتاب عينه) . هذا ما يجعلنا نفكّر بانه عاش فيها ضيفًا حياةً زهد حسب مستقبله عند اناس امناء. واكبر سنًّا منه وما هؤلاء الناس الا الاسينيّون إما في قمران وإما بالاحرى في محل آخر اقلّ بُعدًا من اهله . ليس في «كتاب التهذيب» او في «أثر دمشق» ما يدلّنا على ان الاسينيين اهتمّوا بالتربية ولا يُحتمل إلّا قليلًا ان يكونوا مارسوها في قمران عينها . لكن يوسيف ينسب اليهم هذا العمل بما تعوّده من التفخيم : وهذا ما يحملنا على التردّد .

على شواطئ الاردن يوحنا فتى يافع يحيا حياة زهد مؤثّرة شبيهة بحياة مجاوريه ويمكن انه شاركهم مدة من الزمان الحياة في مغاورهم او كهفهم الكبير في طاعة رؤسائهم . لكن هذا امر يحتاج الى اثبات ولا نأخذ على نفسنا ان نقول بانه محتمل .

على كل حال يوحنا في ايام رسالته كان قد استقلّ عنهم ولو فرضنا بانه حفظ من تربيتهم ومن معاشرتهم انواع الصلاة وممارسة التوبة وعبارات مختصّة بهم كثيرًا او قليلًا ثم انه دون امر او سماح منهم باشر رسالة تائهة لا تتفق البتة مع قوانينهم فانه عوضًا عن ابعاد الخطأة عنه يجتذبهم اليه ويأتي بهم الى التوبة ويُعدّهم لمجيء ملكوت الله وهو ملكوت روحيّ دينيّ لا غير . كم هذا التصرّف هو مختلف من «قاعدة الحرب» . ان الاسيني متعصّب الاستحلام لكنه يدّخر ذلك له وحده ولا يقصد به الا الطهارة الشرعية . اما يوحنا فيعرض عباده على الخطأة وحدهم ليساعدهم بهذه العلامة التي تدلّ على انواع من العباد اكثر فاعليّة وعلى قيامة اكثر نفوذًا واكمل . هو الزاهد المشدّد في زهده يعطي لهؤلاء الخطأة ارشادات دون جفاء ولا شدّة فانه مثلًا لا يأمر العشارين بترك مهنتهم لكن فقط بحفظ شرائع العدل . يجتمع حواليه تلاميذ يعلّمهم الصلاة والصوم بموجب نظام قد يكون شبيهًا بنظام حياة الاسينيين لكنه يمتنع من الحاقهم بقمران .

لا ندري ان كان من سبب اعماله التائبة هذه موضوع لمنة مجاوريه ومعدوداً كخائن او بالعكس كان له ولتلاميذه معهم علاقات ودّية .

يمكن انه بواسطة تلاميذ يوحنا نفذ شيء من الاسينيّة الى الكنيسة فانهم على مثال معلمهم كان لهم حياة روحية تشبه الحياة في قمران وكانوا يمارسون مراسيم مشابهة مع مراسيم قمران ويستعملون عبارات جارية في هذه الشيعة لذلك لربما كانت الروح الاسينية قد أثرت فيهم لا بامور جوهرية لكن بكثير من تصرفاتهم - بين هؤلاء التلاميذ كان تلميذا يسوع الاوّلان احدهم اندراوس اخو بطرس والآخر قد يكون يوحنا الانجيلي ولا شكّ انهما ليسا الوحيدين بين الذين مرّوا من يوحنا الى يسوع الذي كان يوحنا يبشر به فتيرهما قد تبعه مدة حياة رسالته او فيما بعد .

يلزم ان نبعد بتاتاً فكر اقامة يسوع نفسه في قمران . هل كان له مع الدير علاقةٌ ما . هذا على الاقل امر نشكّ فيه . نعم ان جماعة قمران كانت حارّة في العبادة لكنها كانت هائمة فيما لذلك كان للانجيل صعوبة أعظم للنفوذ فيها من صعوبة النفوذ في الفريسيين رغماً عن تعصّبهم . لا بد ان بعضهم تركوا حزبهم للالتحاق بالمسيح : نفوس كريمة يئسوا من الشيعة لما أحسّوا فيها من نقصان . لربما كانت الجاذبية اعظم في غير محالّ في الجليل مثلاً عند الاسينيين المشتتين في جماعات صغيرة او عند المحتاطين بهم المحدّقين . على كل حال كلّ ما نقوله في هذا الصدد ليس الا تخمينات .

قلنا اعلاه باننا لا ننوي اعطاء قائمة مهمة من المقابلات اللفظية التي تُلاحظ بين الآثار الاسينيّة والعهد الجديد لكننا لا نعني بذلك أننا لا نعتبر غير صحيح ما جرى من بحث في هذا الموضوع .

يُجمع الباحثون على ان الاناجيل الثلاثة الاولى لا تحتوي الا القليل النادر من هذا النوع . ان اصل هذه الاناجيل هو التعليم فليست اذن غايتها ان تعطي عقائد لاهوتية او ادبية ببراهينها القياسية لذلك قد اكتفت بنقل تعاليم المعلم كما كان يلقيها على الجموع لا كما كان يحدث له ان يجادل بها نيقودمس او الفريسيين بنوع مشدّد .

بالعكس عندنا مقابلات بين قمران ورسائل القديس بولس وفي الانجيل

الرابع وايضاً في الرسالة الى العبرانيين .

الاتفاق بين قمران ويوحنا الانجيلي يُلاحظ خصوصاً في كثرة استعمال الالفاظ : النور والظلمات وكلاهما عندهما العبارة « نور الحياة » . لكن رغماً عن هذه المقابلة الفرق بينهما عظيم فان يوحنا ينظر الى النور عينه خلاله يظهر شخص الكلمة المتجسد الذي جاء الى هذا العالم . اما الاسينيون فيعرفون خصوصاً «ابناء النور» و«ابناء الظلمات» وهي لهم عبارات مُحنَّلة بغضة لا تحاول الشيعة اخمادها وبالعكس المسيح يخمد حميَّة « ابناء الرعد » .

كان بولس فريسيًّا لم يكن له تعلق بالاسينيين . لكن رأينا ان الاناشيد الاسينية وحدها — نظرًا الى ما عندنا حتى الآن من الآثار — تدلنا على تعليم اسرائيل فيما يخصّ عقيده التبرير . نلاحظ ايضاً بعض الشبه بين معرفة واجبه باعلان سر عظيم والامتياز المنسوب الى رب العدالة « باعلان كل اسرار اقوال الانبياء خدامه » . بصواب يستنتج الاب دانييلو من ذلك اثباتاً بان القديس بولس لم يكن بحاجة الى اخذ عبارات وافكار كهنه خارجاً عن التقليد اليهودي.

في اوائل الديانة المسيحية كما نعرفها من كتاب اعمال الرسل نرى جهوداً تُبذل في التنظيم منها وقتية ومنها جازمة .

بين الجهود الاولى وَضعُ كلّ شيء مشتركاً بين المؤمنين الذي يتكلم عنه كتاب اعمال الرسل (٢ : ٤٥) والذي نتج منه حادث حنانيا وصافيرا المحزن . لا بد انهم لم يُبطئوا ان تركوا هذا النظام الذي ادّى الى جعل الكنيسة — الامّ المعوزة الكبرى التي اهتمّ القديس بولس بتزويدها . المقابلة مع قمران جلية لكن بينها فرق وهو ان هناك برّية يهوذا من اجل زهدهم الشديد في الاشياء المادية وانصابهم على الاشغال اليدوية الثابتة المثمرة لم يوصلهم تخليهم عن اموالهم الى هذا الحدّ من العوز .

أيكون تأثير الاسينية هو السبب الذي حمل جماعة اورشليم على التسرّع في بيع حقول مُغلّة وأموال اخرى مثمرة اما يكون ذلك بالاحرى رغبةً في اطالة أزمنة البطولة في الحياة العامة وفي إسعاف الفقراء .

في هذا البيان الذي اردناه موجزاً بخصوص تأثير الاسينية في اوائل الديانة المسيحية نرى مناسباً ذكر رأي عرضته الآنسة جوبر (Jaubert) . لقد تأكدت بان

الاسينيين كانوا يستعملون تقويماً كهنوتياً قديماً لحساب ايام السنة الشمسية بثلاثمئة واربعة وستين يوماً ثم عرضت اسباباً شتى للاعتقاد بان يسوع تبع هذا التقويم عينه لما كل الفصح مع تلاميذه . في هذا الحال يكون العشاء الاخير ورسم سر الاوخارستيا قد سبقا بيومين حسابنا اي انهما وقعا يوم الثلاثاء لا يوم الخميس بعدة شهادات مسيحية قديمة جداً تبدو لنا كأنها قد حفظت هذه الذكرى ولا ننكر ان هذا الترتيب لحادث الآلام يتفق جيداً مع بعض معلومات الانجيل خصوصاً لانه يعطي المدة الضرورية من الزمان لحضور المسيح امام المحاكم المختلفة.

الى الآن لم يرضَ بهذا الرأي الا القليلون ونلاحظ ان مجلة الكتب المقدسة (Revue Biblique) لم تذكره بعد قط . لكننا لا نقدر إنكار افادته ورفض احتمال صحته .

ماذا يكون نوع ارتضاء المسيح بمبادئ الاسينيين بتصرفه هذا هو ورسله. ليس بامكاننا ان نحدده لكن يظهر جلياً بانه لم يكن للاسينيين تقويم خصوصي لكنهم تمسكوا بالذي عندهم ضدّ ابتداع تقويم الحساب القمري للخدم الدينية. عدد من الكتب المحرّفة يتبعون هذا التقويم الجديد ورؤاه مبيناً في كتاب حزقيال حيث يؤرخ النبي رؤياه الاولى بالشهر الرابع وهذه هي عادة التقويم الجديد بتعيين الاشهر بالعدد لا باسمها . لربما جماعات اخرى غير الاسينيين كانوا هم ايضاً محافظين على هذا التقويم .

عندنا مشكلة اخرى نعرضها : باستباق الفصح الرسمي اربعاً وعشرين ساعة او يومين او اكثر يسوع ورسله بعملهم هذا ما كانوا مقاومين جهاراً لسلطات اورشليم الدينية بحيث يظهرون كمنشقين منها ويخسرون ثقة الشعب فانه ولو اننا لا نجد في كتب اليهود المتأخرة دليلاً من هذا النوع لا بد لنا اردنا ام لم نرد من الاقرار بان عدداً من الاسرائيليين الذين كانوا يأكلون الفصح في اورشليم كانوا يسبقون اليوم الرسمي وكان تصرفهم هذا مسموحاً به . اسباب عملية كانت تجعل ضرورياً هذا التصرف للزوّار حتى يجدوا محلاً موافقاً : لم يكن اذن لاستباقهم الفصح واختيار اليوم الموافق قبل التاريخ الرسمي معنى غير مقبول .

في كتاب العهد الجديد لا نجد قط ذكراً للاسينيين كما اننا في الكتابات

التي عندنا من قمران لا نجد تلميحاً واحداً الى كرازة يوحنا المعمدان او المسيح ولا الى تلاميذه. قد يكون الاحاح في طلب سبب لهذا السكوت الفا. مشكلة لا وجود لها اذ ان هذا السكوت يمكن ان يكون عَرَضيًا ويكون سببه الحقيقي ان الاسينية كانت في اسرائيل قليلة الاهمية واننا نرى تجاوزًا للحدود في الاستنتاج بان الاسينيين كانوا بنظر المسيح ورسله وبكل معنى الكلمة اصدقاء « اسرائيليين حقيقيين » . فاذا اردنا على كل حال تأويلًا لهذا السكوت الذي يزعج بعضهم لرأيناه موقفاً صائباً ازاء منظمة مُبهمة حيث ليس لا اعداء حقيقيون ولا اصدقاء جديرون بكل ثقة .

هل يجب التقدم في الزمان بعيدًا للتفتيش على آثار لقمران وللاسينيين في الرسالة الى العبرانيين وفي اوائل الديانة المسيحية في انطاكية وفي محالّ اخرى .

هذا مشروع يبين لنا خطرًا فانه يتطلب في اوائل الكنيسة مآتي اسينية مهمة نوعاً وعددًا. وهذا امر لا يمكن اثباته وبالعكس نشعر جيدًا في الرسالة الى اهل غلاطية بوجود مؤثرات فريسية شديدة عند اليهود - المسيحيين .

من جهة اخرى ألا يجب ان نذكر بجانب الاسينية وما يبين شبيهاً بها ببعض مظاهره — وقد اهمله اليهود كما اهملوا غيره كثيرين — الاتجاه الذي أعطانا الترجمة السبعينية وسفر الحكمة وفيلون والرسالة الى العبرانيين والاتجاه اليهودي الديني المتكلم باللغة اليونانية ومركزه الاسكندرية وقد نشأ منذ اوائل الكنيسة دون انتظار الاوامر. اخذ الاتجاه الاول يبشر بالاعيل لدى الوثنيين: لم يكن هؤلاء المبشرون فلسطينيين لكن كانوا قبرصيين وقيروانيين « اخوة تبددوا من اجل الضيق الذي حصل بسبب استفانس فاجتازوا الى فينيقيا وقبرس وانطاكية وهم لا يكلمون احداً بالكلمة الا اليهود ولكن قوماً منهم كانوا قبرسيين وقيروانيين فهؤلاء لما قدموا انطاكية اخذوا يكلمون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع وكانت يد الرب معهم فآمن عدد كثير ورجعوا الى الرب » .

(اعمال الرسل ١١ : ٢١-١٩)

وسوف تعود جهودهم الى العمل بواسطة برنابا . بين هؤلاء المبشرين برز أبلّوس وهو من اعظمهم واكثرهم نفوذًا « منشأه الاسكندرية وهو رجل فصيح

طويل باعٍ في الكتب . . كان يحجّ اليهود جهرًا حجًّا بليغًا مُبتدأ من الكتب ان يسوع هو المسيح» . (اعمال الرسل ١٨ : ٢٤ و٢٨)

اليه يُنسب اليوم تصنيفُ الرسالة الى العبرانيين فانها تظهر جليًّا كتأليف يهوديّ يتقن اللغة اليونانية وقد تعلّم في الاسكندرية . إن كان قد تحدّث كثيرًا عن الكهنوت هلّا أمكنه ذلك دون الرجوع الى « العهد الصدوقيّ » الذي يتكلم عنه « اثر دمشق » اما الجماعة المسيحية — وهي قديمة — التي اليها يكتب فلا يجذبها لا قمران ولا المحلات الاسينية الصغيرة لكن رُتب الهيكل الرسمية .

هل كان للاسينية تأثير خارجًا عن الديانة المسيحيّة في مجتمعات اخرى. لربما كان فيمن شارك في تثقيف الابيونيين اسينيّون والابيونيّون كما نعرفهم هم جماعة تائهة لكنها يهوديّة تُحقّ تعترف بيسوع نبيًا وهي مضادّة للقديس بولس. لكن يصعب علينا ان نجد لهم اثرًا كافيًا الاثبات عند « الغنوستيين » .

يظهر ان الاسينيّة بعد نكبة سنة السبعين لم تعش قط حتى ولا في الشعب الاسرائيلي نفسه لكنّ شيعة يهودية كانت موجودة في الاجيال المتوسطة وهي بعد في الوجود الى اليوم تدّعي بتُراث الصدوقيين وهي شيعة القرائيين وبصفتها هذه قامت ضد التقليد الصادر من الفريسيين . وأنان مؤسسهم قد أثبت من جديد المبدأ القديم الذي يعتبر الكتاب المقدس القانون الوحيد الايمان والحياة الدينية . بهذا العمل تصوّر تلاميذه بانهم ليسوا ورثة صادوق الكاهن الاعظم لكن ورثة صادوق تلميذ انطيكونوس دي سكُو الذي عاش في الجيل الثالث قبل المسيح . بعد وفاة أنان او قبله بزمان قليل في سنة ٨٠٠ مخطوطات اكتشفت في مغارة قريبًا من اريحا — لا بد ان هذا كان مستودعًا اسينيًا قرب قمران او في نواحيه — فتأثّر القرائيون بالمحل المهمّ الذي يحتلّه فيها اسم صادوق واخذوا عنه طريقة سلوك تامة مُستمدّة من « اثر دمشق » . على كل حال نسختان من هذا الكتاب قد وُجدتا في جنيزة مجمع القاهرة مع مخطوطات للقرائيين ولا بد ان تكونا من صنعهم . بهذا النوع قد بقي شيء مما عمله قديمًا رب العدالة .

اكتشافات برّية يهوذا

وما انت به في مواضع شتى

انتباه العالم كله التفت الى اكتشافات ضواحي البحر الميت لكنه لم يهتمّ الا قليلًا بغير ما وُجد في قمران وبما أتى به من مساعدة لفهم الكتاب المقدس فهماً أوفى او بالاكثر للتبحث بصواب او بغير صواب عن الاسينية والديانة المسيحية .

ينبغي لنا ايضاً ان لا نجهل ما اعطتنا الاكتشافات الاخرى من آثار في قمران وفي غير مواقع من برّية يهوذا وهي مفيدة لعلوم قديمة شتّى إفادة لا يجوز اهمالها لانها هي ايضاً تأتينا بما هو أهل لاهتمامنا .

لبحثنا هذا نكتفي بمطالعة الفصل الاخير من كتاب الاب ميليك واعطاء موجز منه .

يلاحظ المؤلف اولًا ان مجموع المخطوطات المكتشفة يمتدّ تاريخها الى القي سنة تقريباً . احد اوراق برديّ « المربّعات » وهو الاقدم عندنا باللغات السامية يتصل بالجيل الثامن قبل المسيح . نقرأ فيه اللغة العبرانية مكتوبة بحروف فينيقية : اربعة اسماء علم واعداد . ومن جهة التاريخ الاحدث عندنا آثار خربة مِيرد : قطع عربية مكتوبة على ورق .

ثماني لغات تظهر في الآثار هذه وهي : اللغة العبرانية للكتاب المقدس وعبريانية الميشنا والآرامية الفلسطينية واللغة النبطية واللغة اليونانية واللغة السريانية الفلسطينية واللغة العربية .

في قمران اكثر الآثار الا الكتاب المقدس هي باللغة العبرانية الصحيحة ويمكننا ان نسميها الجديدة وهي اللغة المائتة عالجها اصحاب اللغة لتوفيقها مع الظروف الجديدة على قدر استطاعتهم كما فعل كتاب عصر الانبعاث للغة اللاتينية .

بعض القطع خصوصاً المدرجان النحاسيان هي مكتوبة بلغة مختلفة قليلًا باللغة التي ستظهر فيما بعد في الميشنا وهكذا تكون شهادة لحياة العبرانية الى عصرها وهي ممتزجة اقلّ او اكثر باللغة الفينيقية في بعض الاماكن .

النكبتان نكبة سنة السبعين ونكبة سنة المئة والخمس والثلاثين جاءتا بالشؤم لهذه اللغة القليلة الانتشار لغة فلسطين الارامية التي تكلم بها المسيح نعرفها بتاريخ اقدم منه بكثير في كتاب دانيال وبتاريخ احدث بآثار يهودية شتى . فهان ترد الينا نصوصاً معاصرة لاوائل تاريخنا . يوماً ما سوف يساعدنا هذا في توضيح بعض تفاصيل كتب العهد الجديد .

اللغة السريانية - الفلسطينية وهي لهجة ارامية من النوع الغربي اتخذتها الكنائس الملكية زمناً قليلاً قبل الفتح العربي معارضة للغة السريانية ولكنها لم تقدر على مجاراتها ولو عن بعد لانها تأخرت كثيراً فلم يكن لها زمان كاف لذلك . كان يوجد مخطوطات بهذه اللغة اكتشف اكثرها خارجاً عن بلادها الاصلية خصوصاً في سينا وفي جامع الامويين . دير خربة ميرد تعطينا غيرها وفي بلادها عينها مع قطع غيرها باللغة العامية . لكن اثمن ما جاءنا لفائدة درس اللغات والاصول السامية هي عدة مخطوطات نبطية نجد فيها بالخصوص مبايعة طويلة بها وارث يسترجع اموالاً بيعت بالمزاد . قراءة هذه المبايعة وادراك معناها توصّل اليها الاب ستاركي . الى اليوم كانت اللغة النبطية تُعدّ بين اللغات التي لا نعرفها الا من تواريخ القبور وكتابات اخرى قصيرة قليلة العدد .

اكثر صعوبة من علم اللغات هو علم الكتابات القديمة وتحولاتها لكنه كالفخار القديم مفيد جداً ولو ثانوياً لعلم الآثار . الى اليوم فيما يخصّ اللغة العبرانية قبل تاريخنا وفي اوائله لم يكن لدينا الا كتابات والأصداف وهذا كان كافياً للمتخصصين لاكتشاف قِدَم تاريخ مدرجات قمران . من الآن فصاعداً هذه المدرجات والقطع التي وُجدت معها تكون ادلّة كبيرة الثمن وقد انتجت نتائج غزيرة .

من اهمّ هذه النتائج المقابلة بين ما وُجد في قمران من نصوص الكتاب المقدّس ونصوص « المُربّعات » للكتاب عينه . النصوص الاولى هي اقدم من سنة ٦٨ فهي اذن اقدم من مجمع الربّانيين الذي اقيم في جمنيا سنة ٨٠ وعنه تُكلّمنا الميشنا والذي حدّد نهائياً نصوص الكتاب المقدس العبراني . نجد فيها فروقاً بالمقابلة مع هذا النص وهو مُصادفةً المثال الاصليّ ولو اختلف شيئاً ما من الترجمة السبعينية . نجد فيها ايضاً حروفاً كتابية مختلفة أُهملت لِتقدّمها . نصوص

الربانيين ليست فقط مُقرّرة نهائياً بذاتها لكن ايضاً بنوع كتابتها ولا بدّ انها فُرضت في جمنيا .

اخربة قمران تكلمنا عن تمرد اليهود الاول سنة ٧٠—٦٦ . في وادي المرّبعات نرى آثار التمرد الثاني في عهد الامبراطور هادريان (١٣٥—١٣٢) . لا بدّ ان المتمرّدين اتخذوا كلاجيّ المغاور في هذا الموقع بقيادة يشوع ابن جلجولة وكان لهذا علاقات مباشرة مع بركوكبا الشهير رئيس التمرد الاعظم . الى اليوم كنا نعرف لهذا تسمية مدح بركوكبا (ابن الكوكب) وكنية بركوزبه (ابن الكذبة) . في المرّبعات نعرفه باسم ثالث باسمه الحقيقي شمعون بركوزباه (ويكون معناه : الكزيرة . ولربما تكون تسمية حرب) . اغرب القطع رسالة منه الى يشوع بر جلجولة ولا بدّ انها بخط يده فيها يظهر ذا حماسة شديدة : «يشوع بر كوزبه الى يشوع بن جلجولة والى رجال الموقع . السلام . آخذ السماء شاهداً ضدي اذا عومل احد الجليليين الذين هم بينكم معاملة سيئة اذ ذاك سوف اقيد رجليك بالحديد كما فعلت بابن ابلول . كتبه شمعون بركوزبه» .

قد يكون هؤلاء الجليليون لاجئين يهوداً من الجليل أحرى بهم ان يكونوا مسيحيين وقد اساء بركوزبة معاملتهم حسب القديس يوستينوس القيصري . ولربما يكون سوء المعاملة عدم اعطائهم كل حصّتهم من المأكل في اوقات المجاعة هذه في ايام حرب .

تنبي بهذه الرسالة القصيرة بعث بها راهب لارشيمندريته تحيّة لخربة ميرد وهي اقل غنى من غيرها بالاكتشافات الكبيرة :

«من قِبَل المبارك من الرب والمحاطيّ غبريال الى رئيس منارة معلينا وآباؤنا ارجوك الصلاة من اجلي من سبب القبيلة فان قلبي يرتجف بخصوصها . ليكن معك السلام من قِبَل الآب والابن والروح القدس . آمين» .

صوت مؤثر في سرّ هذا الدير الذي بدوره سقط في الاهمال . صوت شاركها اتفاق الحفريات الحديثة وقد ابتعدت باصوات اسلاف قمران فاضحت بعد المسيح وفي شريعته وقد رُسمت بعلامة الصليب صدى الجهود التي بدأت بيذلها في شريعة موسى نفوس كريمة تركت كل شيء في طلب الله .